دراسات قرآنية

فى العقيدة والأخلاق والاجتماع

تأليف المرحوم فضيلة
الدكتور سيد أحمد رمضان المسيّر
أستاذ التفسير والحديث بكلية أصول الدين ورئيس قسم الدعوة

تقديم وتحقيق
الدكتور محمد سيد أحمد المسيّر
أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين

مكتبة الإيمان
للطباعة والنشر والتوزيع
٤ ش أحمد سوكارنو ـ العجوزة
ت: ٣٤٥٢٣٠٢

الطبعة الثانية
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

رقم الإيداع : ١٧١٠٤ / ٢٠٠٤م
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977-5260-41-8

مكتبة الإيمان
للطباعة والنشر والتوزيع
٤ ش أحمد سوكارنو - العجوزة
ت: ٣٤٥٢٣٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب والمؤلف

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

أما بعد:

فها نحن أولاء نقدم للقارئ الكريم الكتاب الرابع من مؤلفات المرحوم فضيلة الأستاذ الدكتور سيد أحمد رمضان المسير بعنوان «دراسات قرآنية» وقد سبقه ثلاثة كتب هى:

١ـ إلزام القرآن للماديين والمليين.

٢ـ السنة المطهرة بين أصول الأئمة وشبهات صاحب فجر الإسلام وضحاه.

٣ـ السنة مع القرآن

ونحمد الله تعالى كثيرًا أن وفقنا لتجميع هذا التراث العلمى ونشره وفاء لحق الأبوة، وتقديرًا لفضيلة العلم، ورجاء لثواب الصدقة الجارية.

وقد حاولت بقدر الإمكان تنسيق هذا الكتاب الجديد وتقسيم موضوعاته فجاء على أربعة مباحث هى:

المبحث الأول: دفع الشبهات عن حقائق وعلوم قرآنية:

وهذا المبحث يشمل القصة فى القرآن وما أثير حولها من افتراءات والرد على ذلك، ثم الإسرائيليات وكيف دخلت التفسير، ثم ذكر شبهٍ أثيرت حول جمع القرآن ورسم المصحف والرد عليها.

وقد كتب المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ هذا المبحث وأملاه على طلاب السنة الثانية بكلية أصول الدين.

المبحث الثانى: مفاهيم إسلامية:

وهذا المبحث فيه تصحيح لمفاهيم العلم والإيمان والتقوى والعقيدة والطاعة والفكر والهداية بحيث يتلقاها المسلم صافية نقية من نبع القرآن المجيد والسنة المطهرة.

المبحث الثالث: الدين والحياة:

وفيه بيان لجدة معانى القرآن فى التوحيد والعبادات والأخلاق، وتوضيح لمطالب الحياة الصحيحة وتنظيم الأسرة وبناء المجتمع على تقوى من الله ورضوان.

المبحث الرابع: الدعوة إلى الله تعالى:

وفيه شرح لحقيقة الدعوة، وبيان لمراتبها، وتقديم نموذج لها.

وقد كانت هذه المباحث الثلاثة (مفاهيم إسلامية، الدين والحياة، الدعوة إلى الله) إملاءات قدمها المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ لطلاب الدراسات العليا فى قسم الدعوة بكلية أصول الدين.

والملاحظة الجديرة بالاعتبار أن هذه الدراسات القرآنية خرجت من قلب مفعم بالإيمان متمكن من العلم، وكتبت بإخلاص لا يضارع، وحب لله ورسوله لا يتناهى.

هذا وقد ولد المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فضيلة الدكتور سيد أحمد رمضان المسير ـ أستاذ التفسير والحديث بكلية أصول الدين ورئيس قسم الدعوة بجامعة الأزهر ـ فى قرية (كفر طبلوها ـ مركز تلا ـ محافظة المنوفية) بتاريخ ١٦/٣/١٩٠٧م وحفظ القرآن الكريم صغيرًا، والتحق بالمعهد الأحمدى بطنطا، وأظهر نبوغًا فى العلم، وطهرًا فى الخلق، واستقامة فى السلوك، حتى واصل تعليمه الأزهرى وتخرج فى كلية أصول الدين، وآثر طريق العلم فرفض الوظيفة وتفرغ للدراسات العليا والتخصص رغم مشقة العيش وضيق ذات اليد، وطول سنوات الدراسة.. وقد أكرمه الله فحصل على شهادة العالمية من درجة أستاذ (الدكتوراه) فى التفسير وعلوم القرآن عام ١٩٤٦، وكان موضوع رسالته (موقف السنة من القرآن) وهو موضوع يكاد يكون الأول فى بابه حينذاك.

وبعد ذلك عين مدرسًا بمعهد قنا الدينى، ثم نقل إلى معهد طنطا الثانوى، ثم إلى معهد شبين الكوم، ومنه انتقل إلى التدريس بكلية أصول الدين فى العام الجامعى ١٩٦٠/١٩٦١م.

وعندما تولى التدريس بالجامعة رفض فكرة المذكرات، وأصر على الاحتفاظ بكتب التراث بين يدى الطالب، ثم أملى على طلابه ما فتح الله به عليه وتركهم

وشأنهم فى تداول هذا الإملاء، نظرًا لما يلقونه من عنت وعسر فى تكاليف شراء الكتب الجامعية.

وهذا الكتاب الذى نقدمه اليوم هو بعض هذه الإملاءات التى نرجو أن ييسر الله لنا سبل إخراجها لينتفع بها المسلمون.. وقد قمت بالتحقيق ووضع الهوامش كلها وكثير من العناوين الجانبية.

هذا وقد قضى - رحمه الله تعالى - حياته كلها فى خدمة القرآن والسنة، والدعوة إلى الله، وبناء الشباب على قيم الإسلام الراشدة، وكان رحمه الله تعالى متعلقًا بالقرآن حفظًا وفهمًا، حتى لقد تمنى على الله أن يهيئ له فرصة المكث فى المسجد لتحفيظ القرآن الكريم عملاً بالحديث الشريف: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه).

وقد خرَّج - رضى الله عنه - مدرسة من الرجال يدينون له بحسن التوجيه وكريم الرعاية، ولطالما نادى بأن الخلق قبل الشهادة وأن العمل قرين العلم.

ومارس - رحمه الله - التوجيه العملى للمسلمين، فأدى خطبة الجمعة فى بلدته (كفر طبلوها - مركز تلا - محافظة المنوفية) لمدة ربع قرن أو يزيد، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتحمل تكاليف الدعوة، محتسبًا الأجر من الله والمثوبة يوم لقائه.

وذات يوم تقدم إليه طالب بمعهد شبين الكوم الدين بأبيات شعرية منها:

يا كفر طبلوها حظيت برفعة	وأتاك عالى المجد والدرجات
بمسيرّ حاز الفضيلة والتقى	مَنْ علمه يشفى من الشبهات
كم شبهة ضاق الفؤاد بحلها	فأزالها بالنور والآيات

وقد أعاد - رضى الله عنه - لنا سيرة السلف الصالح، فلم يهتم بمظهر، ولم يعبأ بجاه، ولم يتملق كبيرًا، واعتز بإسلامه وأزهريته إعتزازًا لا يضارع، حتى لقد قال: لو كان لى من الأبناء عشرة ما علمتهم إلا فى صحن الأزهر القديم!!.

وردد كثيرًا قول الحق سبحانه: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [فصلت: ٣٣].

وكان يتلوها هكذا: وقال - أى مفتخرًا - إننى من المسلمين!!

ودعاؤه الضارع دائمًا هو دعاء عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وفى بيته كان يتولى شئون نفسه رغم ما أصيب به من فقد بصره بعدما جاوز الخمسين من عمره وقال يوم ذاك: الحمد لله الذى جعلنى لا أرى منكر النساء العاريات الكاسيات!!.

وعندما عاد من رحلة الحج إلى البيت العتيق سألناه بماذا دعا لنا؟

فقال ـ وكان شديد الشوق لهذه الرحلة ـ:

من كان له حبيب فليدع له بالحج!!.

وقد استجاب الله دعاءه فحج أبناؤه وأحفاده جميعًا.. والحمد لله.

ولم ينس وهو فى مرض الوفاة أن يوصى فى ماله خيرًا تنفيذًا لسنة رسول الله ﷺ فى قوله (ما حق امرئ مسلم له شىء يوصى فيه يبيت ثلاث ليال إلا ووصيته عنده مكتوبة).

وكان له ـ رضى الله عنه ـ فلسفة خاصة فى المرض وخطوب الحياة تتسم بالرضا بالكامل والتسليم المطلق، وقلما ذهب إلى طبيب بل ذهابه لا يكون إلا عن إلحاح منا وكره منه.

ولعله كان يتمثل قول الشاعر:

تلذ لى الآلام مذ أنت مسقمى   وإن تمتحنى فهى عندى صنائع

وكثيرًا ما يروى أن الربيع سأل الشافعى عن التسليم، فقال: هو نصف الإيمان، فقال الربيع: بل الإيمان كله يا إمام!!.

فأطرق الشافعى ثم قال: الحق معك يا ربيع!!.

ويروى أيضًا أن بعضهم دخل على أحد العارفين فى مرضه فقال له: عافاك الله يا سيدى. فقال الشيخ: إن العافية هى كما يريدها الله لا كما نريدها نحن، لقد سأل العافية رسول الله ﷺ ومات مسمومًا من أكلة خيبر التى كانت تعاوده[1].

---

(١) فى صحيح البخارى أن النبى ﷺ كان يقول فى مرضه الذى مات فيه: «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهرى من ذلك السم». والأبهر: عرق متصل بالقلب.

وسأل العافية عمر رضى الله عنه، ومات من طعنة مجوسى له فى المسجد.

وسأل العافية عثمان رضى الله عنه، ومات مقتولاً فى بيته من الفئة الباغية وهو يقرأ القرآن.

وسأل العافية على رضى الله عنه، ومات مقتولاً وهو فى طريقه إلى المسجد.

فالعافية هى ما أراده الله!!.

وأذكر أن والدى - رحمه الله - وهو فى مرض الوفاة ظل يرفض الطبيب ولا يكترث بحضوره، وقلما تجاوب معنا فى إعطائه الدواء حتى كان اليوم الأخير من حياته، فأخذ يلح علينا فى إحضار الطبيب.. وكأنه يتحدانا ويقول: أحضروا من شئتم.. إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر!!

هذا وإن ملامح فكره ودعائم رسالته التى تحمل عبء تبليغها للناس تتلخص فيما يلى:

أولاً: الإسلام دين الله الخاتم، والقرآن هو الذى له الهيمنة الكاملة على كل مناحى الحياة، وكان ينادى بأعلى صوته بقوله الله تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ [التوبة: ٢٩].

ثانيًا: الدين كل لا يتجزأ، وطاعة الله تعالى تتمثل فى القيام بما أمر به فى قرآنه وما بينه رسوله ﷺ فى سنته على كل حال من اليسر والعسر والمنشط والمكره، إذ لكل حال من هذه الحالات رسم خاص فى الشريعة يجب اعتباره والقيام به بدقة وأمانة.

وكان - رضى الله عنه - يحكى فتوى بعض الأئمة - فى أنه لو قيل لرجل: قص أظافرك فإنها سنة.

فقال: لا أقص ولو كانت سنة

يحكم بكفره لاستهانته بما شرع الله.

ثالثًا: الدنيا مزرعة للآخرة، لم يخلقها الله لنجمعها ذهبًا وفضةً، ولا لنفخر بها جاهًا وسلطانًا، ولا لنعتز بها قصورًا شامخة وحدائق ذات بهجة.

وإنما كانت هذه الحياة كما بينها الله جل جلاله فى قوله: ﴿**الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ**

وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: ٢].

رابعًا: الأسرة مسئولة مسئولية كاملة عن الأبناء وتنشئتهم التنشئة الإسلامية القائمة على النبع القرآنى والهدى المحمدى، كما قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾ [التحريم: ٦].

والرجل هو القوام على الأسرة بنص القرآن الكريم الذى لا يحتاج إلى تأويل أو اجتهاد فى قوله سبحانه: ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾ [النساء: ٣٤].

وإن ما وصلت إليه المرأة المسلمة اليوم من سوء حالها وتدهور أخلاقها لهو نذير بلاء للمسلمين.

خامسًا: إن هناك تحريفًا لمعنى كلمة (العلم)، فقد أرادوا بها كل ما يعلم ولو كان مهنةً أو صنعةً، ونقلوا خصائص العلم ومميزاته إلى هذا العموم، وفيه من الخلط والتشويه للحقيقة ما فيه.

فهناك علم له معناه، وله خصائصه من الكرامة والرفعة، وهناك صنعة لها فائدتها ومعناها الذى يليق بها.

فالعلم هو معرفة الله عز وجل بما يليق بجلاله، وما يتفق وعظمة صفاته، ومعرفة المآل وما فيه من نعيم دائم أو عذاب خالد، ثم تطهير النفس والسمو بها حتى تلحق بالأنبياء والصالحين.

ولا يغنى عن هذه الأصول معارف دنيوية تنظم هذه الحياة مهما كان مصدرها ومهما كان واضعها، وأنسب لفظ لتلك المعارف هو لفظ الصنعة.

قال الله تعالى: ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [الروم: ٦، ٧].

فقد قال المفسرون:

إن قوله تعالى: ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا** ﴾ بدل من قوله سبحانه: ﴿ **لا يَعْلَمُونَ** ﴾ أى أنه لا فرق بين عدم العلم الذى هو الجهل وبين وجود العلم الذى لا يجاوز الدنيا.

والصنعة فى الإسلام لها مكانتها الخاصة دون مكانة العلم، فهى فرض كفاية وطريق للكسب المشروع وضرورة من ضرورات الأمة.

وقد توفى ـ رضى الله عنه ـ فى الثامن عشر من ذى القعدة سنة ١٣٩٥هـ الموافق الحادى عشر من نوفمبر سنة ١٩٧٥م، ومع كثرة الناعين لفضيلته والذاكرين لمآثره فإنى أخص بالذكر هنا قول أحد زملائه وأحد تلاميذه.

قال الأستاذ الكبير البهى الخولى ـ رحمه الله رحمةً واسعةً، فقد توفى بعده بعامين تقريبًا ـ:

لقد افتقدنا وارث علم السلف الصالح. . . ، فقد كنت أعتز بصداقته وأعتبرها كنزًا من كنوز الجنة، فيه صحبة الأنبياء، وعطر الأولياء، والأنس بمعية الله عز وجل.

وقال الدكتور محمود فوزى القاضى[1] أحد تلاميذه الذين أشرف على رسائهلم فى الدكتوراه:

لقد لاحظت شدة شوقه إلى الله والدار الآخرة، وأنه كان يعانى آلامًا مبرحة مما آل إليه أمر المسلمين، وأذكر أنى قلت له ـ يرحمه الله ـ: ترفق بنفسك يا سيدنا فإنى أخاف على قلبك الكبير من أن ينفطر حزنًا، فقلل إن استطعت من هذا الحماس وهذه الغيرة المشكورة على الدين.

فقال: ليتنى أستطيع!!

إن هذه النفس المطمئنة خليق بها أن تستريح إلى جوار ربها بعد أن أدت كل ما عليها نحو دينها وأمتها.

القاهرة فى { ٢٦ من المحرم ١٤١٣هـ
٢٧ من يوليـو ١٩٩٢ م }

أبو حذيفة
دكتور محمد سيد أحمد المسير
أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر

(١) توفى إلى رحمة الله سنة ١٩٩١م.

أمى (*)

أمى: ولدت بتاريخ ١٨/ ١٠/ ١٩١١م فى قرية «كفر طبلوها» بمحافظة المنوفية، وتعلمت فى أسيوط، ونشأت فى القاهرة، فى بيت طاهر عزيز، فوالدها الشيخ عبد العزيز متولى، أول من حصل على العالمية من الأزهر الشريف فى قريتنا أوائل القرن العشرين، واشتهر بالعلم والفضل، وكان مشهودًا له فى علم أصول الفقه بالقسم العام بالأزهر وبكلية الشريعة.

أمى: حفظت القرآن الكريم وكتبت العلم لأبيها وقامت بتحفيظ القرآن لأولاد إخوتها وأخواتها قبل زواجها، وقد قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

أمى: واصلت مسيرة العلم والطهر والنقاء بزواجها من الدكتور سيد أحمد رمضان المسير، وهو أول من حصل على الدكتوراه فى قريتنا سنة ١٩٤٦م، واعتز بإسلامه وأزهريته اعتزازًا لا يضارع، ولم يهتم بمظهر، ولم يعبأ بجاه، ولم يتملق كبيرًا، وخرَّج مدرسة من الرجال يدينون له بحسن التوجيه وكرم الرعاية فى كلية أصول الدين - جامعة الأزهر، التى شغل فيها أستاذ التفسير والحديث ورئيس قسم الدعوة.

أمى: علمتنى القرآن استجابة لرؤيا صالحة حين الوضع، أعطيت فيها دواة ولوحًا، وقيل لها: أقرئيه القرآن.. وواصلت مسيرة التحفيظ لأحفادها فجلسوا بين يديها يلتمسون البركة والخير والدعاء.

وظلت حريصة على العلم وفيَّة للكتاب فأصرت على أن تتبرع بمكتبة والدها للأزهر الشريف، وهى مكتبة حافلة بالمخطوطات ونوادر الكتب، وقد شاركت فى إعدادها وتنسيقها، فلما توفى والدها أغلقت خمسين عامًا، فطالبت أبناء أخيها بالإفراج عنها حتى سلموها إلى مكتبة الأزهر

(*) استكمالاً للتعريف بالمؤلف رحمه الله تعالى، وبرًا بالوالدين ووفاء لهما..

الشريف، فحمدت الله كثيرًا واطمأنت لأداء أمانة العلم ومنحها ذلك سرورًا كبيرًا.

أمي: حباها الله تعالى بالرؤيا الصالحة فكانت لا ترى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح..

وحباها الله تعالى بالجوار الشريف فى الحرمين الشريفين مدة عشر سنين، هى فترة إعارتى فى المدينة المنورة ومكة المكرمة.

وحباها الله تعالى بصيام أكثر من ثمانين رمضان، ولم تدع نافلة صوم حتى عامها الأخير.

وحباها الله تعالى صبرًا جميلاً واحتسابًا صادقًا حين فقدت إحدى ابنتيها بعد وفاة زوجها بستة أشهر، وحين مرضت أكثر من عشر سنين مرضًا أقعدها، ومع ذلك فكانت لا تدع المصحف الشريف صباحًا ومساء..

وفى حديث رواه النسائى والترمذى وقال: حسن صحيح، قال رسول ﷺ: «من شاب شيبة فى الإسلام كانت له نورًا يوم القيامة».

أمي: نظرت بنور الله وألحت علينا أن نذهب بها من القاهرة إلى البلدة لأن أهلها وإخوتها ينتظرونها ويستعجلون قدومها رغم أنهم جميعًا توفوا قبلها بسنوات طوال، وكانت تقول: إنه قد حان وقت وفاتها.. ولم نكن ندرك أنه نور الله يجرى على قلبها ولسانها كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾.

أمي: أسلمت روحها إلى الله تعالى ليلة الثامن من جمادى الآخرة سنة ١٤٢٢هـ الموافق ليلة السابع والعشرين من أغسطس سنة ٢٠٠١م..

وسترها الله فى غسلها فلم تقف عليه إلا ابنتها مع ابنتى أختها وامرأة تساعدهن..

ويسر الله جنازتها فأظلتها الغمام حتى دخلت مثواها الأخير عقب صلاة الظهر..

أمى: هى الحنان والتضحية، هى الحب والإيثار، هى أحد اثنين هما مثال الرحمة فى هذا الوجود، كما قال أحمد شوقى فى مدح رسول الله ﷺ:

وإذا رحمت فأنت أم أو أب   هذان فى الدنيا هما الرحماء

ولذا أمرنا الله تعالى بهذا الدعاء الجامع:

﴿ **وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً** ﴾.

أمى: سلام عليك فى الملأ الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا..

* * *

المبحث الأول

دفع الشبهات
عن حقائق وعلوم قرآنية

معنى القصة

يقال فى اللغة: قص الأثر، إذا تتبعه، ومنه قول الله سبحانه: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص:١١]، ثم نقل إلى «قص الحديث» أى حكاه ورواه، وذلك لأن حاكى الحديث يتبع ما حفظه شيئًا فشيئًا، كما أن المعنى الأصلى للتلاوة هو الاتباع ثم نقلت إلى معنى القراءة لأن القارئ يتلو أى يتبع ما حفظه شيئًا فشيئًا.

وإذا كان المعنى الأصلى لكلمة «قص الأثر» تتبعه ـ كما قدمنا ـ فإن مصدر هذا الفعل هو القصص، قال تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤] أى اقتصاصًا للأثر وتتبعًا له.

وقد يخرج عن هذا المعنى المصدرى ويراد به «المفعول» ويتجلى ذلك فى قوله تعالى من سورة يوسف ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣] فإما أن يراد به المعنى المصدرى وهو الاقتصاص، والمعنى عليه أن الله تعالى جعل اقتصاص هذه القصة على خاتم النبيين محمد ﷺ أحسن من اقتصاصها على موسى عليه الصلاة والسلام فى التوراة.

لما روى أن اليهود تفاخروا بأن الله سبحانه بين لهم قصة يوسف عليه الصلاة والسلام فى التوراة وهى غير مذكورة فى القرآن، فنزلت هذه السورة على أبدع طريقة وأعجب أسلوب بلغة العرب وهى أفصح من لغة اليهود ـ ليزول افتخارهم على المسلمين ويكون ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣] على هذا منصوبًا على أنه مصدر مؤكد ويكون المقصوص بناء على هذا التوجيه محذوفًا بدلالة قوله تعالى: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف:٣].

ولعله من المناسب ليزداد هذا المعنى وضوحًا أن نسوق من التوراة والقرآن ما اجتمعا عليه فى معنى واحد وموضوع معين من أمر يوسف عليه الصلاة والسلام.

فقد جاء فى التوراة إخبارًا عن وجود يوسف فى بيت العزيز ومراودة المرأة له وأنه خرج ولم يحقق لها غرضًا، جاء ما يأتى:

«ثم حدث فى هذا الوقت أنه (يوسف) دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك فى البيت فأمسكته بثوبه قائلة: اضطجع معى فترك ثوبه فى يدها وهرب وخرج إلى خارج».

أين هذا التعبير الأولى البدائى الذى لم يجاوز الإخبار بالحقيقة خالية من جمال النظم وبراعة الأسلوب ودقة التصوير، أين هذا من قوله سبحانه وتعالى فى هذا المعنى من سورة يوسف ﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴿٢٣﴾ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴿٢٤﴾ **وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ الآيات [يوسف: ٢٣ - ٢٥].

هذا هو نظم القرآن وتعبيره فى هذا المعنى، وإنه لمن المسلم به لدى كل عاقل دون غلو فى القول أو تزيد فيه أن هذا القول القرآنى - كشأن باقى القرآن - بالغ حد الإعجاز فى التصوير والتعبير، وأن سامعه على أى ملة كان ومن أى جنس هو - لا بد أن ينحنى إكبارًا لجلاله وأن يطأطئ الرأس خشوعًا لما حوى من إفصاح عن الحقيقة وإيضاح بالغ لمعناها.

كما أنا نرى فى هذا المعنى - أيضًا - صورة للمثل الأعلى فى النفس الإنسانية فى صراعها مع الفتوة الصارخة ونداء الجنس الصاخب، إنها النفس الكبيرة التى جاهدت الجهاد الأكبر فقمعت كل هذه الشهوات الخسيسة.

إنها النفس المؤمنة التى أراد الشيطان ضلالها وزيفها فلما تحسست إيمانها وعمق روحها داسته بأقدامها وبقيت النفس الفاضلة[(١)]!

وإما أن يراد بالقصص[(٢)] معنى المفعول فيكون المعنى أحسن المقصوص ويكون منصوبًا على أنه مفعول به، وعلى هذا التقدير يكون معنى ﴿ **أَحْسَنَ الْقَصَصِ** ﴾ [يوسف: ٣] أحسن المقصوص وذلك باشتمال القصة على الحكم والآيات والعبر التى

---

(١) من كتاب الدعوة التحررية الكبرى. للأستاذ/ محمد مصطفى عطا.

(٢) فى قوله تعالى: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾.

ليست فى غيرها، قال بعض العلماء: «سمى الله تعالى قصة يوسف عليه الصلاة والسلام أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والفوائد التى تصلح للدين والدنيا من سير الملوك والمماليك، ومكر النساء والصبر على أذى الغير وحسن التجاوز عنهم بعد الاقتدار، ولذلك قال ابن عطاء «لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها».

وعلى ما تقدم يكون معنى القصة فى القرآن الكريم هو إخبار الله تعالى وحكايته أحوال الأمم السالفه وأنباء القرون الماضية.

***

حكمة ذكر القصة فى القرآن

لم تذكر القصة فى القرآن لتشير إلى هندسة تتمثل فى بناء ضخم يحوى أدق نظريات الهندسة وأعجب نظريات الأطوال والمساحات، ولا إلى طب يتمثل فى تحنيط أجسام الموتى وبقائها آلاف السنين، كما أنها لا تشير إلى نحت وتصوير ونقش مهما بلغ من الدقة ما بلغ لأن تلك معارف دنيوية وأفكار بشرية يهتدى إليها الناس بمحض عقولهم وخالص آرائهم.

وإنما جاءت القصة فى القرآن عبرة واتعاظًا لمن سلك غير سبيل الحق فى عقيدة أو عمل، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِى الأَلْبَابِ**﴾ [يوسف: ١١١]، وقال سبحانه: ﴿**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ**﴾ [الأنعام: ٦] إلى أن قال: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ [الأنعام: ٦].

فالقصة إنما كانت للدعوة إلى ما فى القرآن من علوم، والتحذير من مخالفتها والبعد عنها، وهذه العلوم ـ كما قال ابن العربى فى أحكامه ـ ثلاثة أقسام:

أولاً: توحيد.

ثانيًا: تذكير.

ثالثًا: أحكام.

ثم قال ابن العربى «وعلم التذكير هو معظم القرآن فإنه مشتمل على الوعد والخوف والرجاء والقرب وما يرتبط بها ويدعو إليها ويكون عنها.

وذلك معنى تتسع أبوابه وتمتد أطنابه. اهـ.

ولا شك أن تكاليف القرآن وأحكامه تخالف أحكام وتكاليف الكتب السابقة؛ ومن لم يؤمن بهذه الأحكام وتلك التكاليف من أهل الكتاب فهو كافر مخلد فى النار وإن كان موحدًا مصدقًا بالرسل السابقين. فلا وحدة بين الأديان إلا فى

الدعوة إلى التوحيد والإيمان باليوم الآخر وأصول العبادات دون هيآتها وكيفياتها.

وإنما نبهنا على ذلك تحذيرًا مما يوهمه كلام البعض من أن الوحدة بين الأديان مطلقة وعامة، وأين هذا من قوله جل وعلا: ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة: ١٣٤].

ثم إن القصة بعد ذلك آية بينة ومعجزة ظاهرة لنبينا محمد ﷺ حيث أخبر بها وبحقائقها مع أنه أمى لم يقرأ ولم يكتب ولم يصاحب أحدًا ممن له علم ودراية بهذه الحقائق وتلكم الوقائع.

قال تعالى فى سورة آل عمران بعد أن قص أخبار مريم وزكريا: ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وقال فى سورة هود بعد ذكر قصة نوح عليه السلام: ﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [هود: ٤٩].

وقال فى هذه السورة - أيضًا - بعد قصص عاد وثمود ومدين وغيرهم قال: ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ** ﴾ [هود: ١٠٠].

وما أبدع قول البوصيرى - وصفًا لمعجزة القرآن المجيد -:

لم تقترن بزمـان وهى تخبرنا   عن المعاد وعن عاد وعن إرم

وكذلك ذكرت القصة فى القرآن تسلية للنبى ﷺ ودعوة له إلى التأسى بالأنبياء قبله حتى إنه ﷺ لما أشتد إيذاء قومه له قال «يرحم الله موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر».

قال تبارك وتعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ** ﴾ [هود: ١٢٠].

* * *

تكرير القصة فى القرآن

هناك بعض القصص القرآنى استغرق فى وقائعه التاريخية أزمنة متطاولة تبلغ عشرات السنين والأعوام. فهى لذلك تحمل فى طيها الكثير من الأحداث الجسام والأخبار العظام. . وكان سوقها فى موضع واحد من القرآن ـ والحال هذه ـ يورث مللاً فى السمع وسآمة فى الطبع مع أنها فى أعلى طبقات البلاغة والفصاحة. لذلك اقتضت حكمة الخبير الذى هو بعباده رءوف رحيم أن يجعل مثل هذه القصة فى مواضع من القرآن متعددة وأن ينثر دررها على أجزاء منه مختلفة حتى تتم الغاية ويكمل المقصود، وخصوصًا إذا ما لوحظ أن بعض القصة إذا ذكر فى سورة معينة فإنه إنما جاء لتناسب الغرض الذى من أجله سيقت السورة، فمثلاً نرى قصة نوح عليه السلام ذكرت فى سورة يونس، ونرى أول السورة يحكى عجب الكفار من إرسال محمد ﷺ وقولهم فى القرآن إنه سحر.

وكان ذلك مما يشق على نفسية الرسول الكريم فكان فى حاجة ماسة إلى تسلية تدفع هذه الكروب وتلكم المضايقات. . وذلك قوله تعالى: ﴿**أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ**﴾ [يونس: ٢].

فجاء ما جاء من قصة نوح فى هذه السورة مسليًا للنبى ﷺ ومخففًا عنه ما به من هذه المضايقات وليس ذلك إلا بذكر نتيجة المكذبين ونصرة نوح ومن معه من المؤمنين فى إيجاز بالغ دون دخول فى تفاصيل القصة وبيان كل دقائقها. . إذ المناسب لسياق السورة وتسلية الرسول هو ما ذكر فقط دون ما سواه. . واقرأ قوله تعالى فى تلك السورة ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ**﴾ إلى أن قال ﴿**فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ**﴾ [يونس: ٧١ ـ ٧٣].

وقد جاءت هذه القصة فى سورة «هود» و«المؤمنون» وغيرهما من السور بأوضاع تخالف ما جاء فى سورة يونس للغرض السالف الذكر وهو مناسبة القصة

لسياق السورة.

ولتوضيح أن طول القصة قد يورث السامة والملل فتحاشى القرآن ذلك نأخذ قصة موسى عليه السلام: فقد تحدث القرآن عنه من حين نشأته إلى إرساله إلى فرعون.. إلى نهاية فرعون وإهلاكه بالغرق هو وجنوده حين كذب بموسى وما جاء به من الحق الصراح.

تحدث القرآن الكريم فى أول سورة القصص عن نشأته وأنه نشأ فى عصر كله ظلم واضطهاد وأن فرعون «ملك مصر» كان يذبح الذكور ويترك الإناث حذرًا من ضياع سلطانه على يد غلام من بنى اسرائيل ولكن الله العلى القدير الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء خلص الوليد «موسى» من طغيان فرعون وجبروته، بل جعل فرعون هو المربى له والمشرف عليه فى طفولته..

قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ [القصص: ٧، ٨].

وفى الآية الأولى من هاتين الآيتين ما يحير اللب ويدهش العقل، من أسرار البلاغة والفصاحة فقد جمعت ـ كما قال العلماء ـ أمرين ونهيين وبشارتين أما الأمران فهما (أرضعى، ألقى)، والنهيان هما: ﴿ وَلَا تَخَافِي ﴾، ﴿ وَلَا تَحْزَنِي ﴾، والبشارتان هما ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾، ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾.

ثم من الآية أيضًا ما يخالف العادة ويغاير المألوف عند الناس إذ كيف تؤمر أم موسى إذا خافت عليه بإلقائه فى النيل وهو بالنسبة للطفل مهلكة لا نجاة منها، ومخافة مروعة لا أمن فيها ولا اطمئنان!؟ ولكنها قدرة الله وحمايته ورعايته وكفالته سبحانه لا إله غيره ولا رب سواه.

وفى الآية الثانية أن آل فرعون التقطوه من النيل وأنه دخل قصر فرعون وربى فيه.. وفى هذا من التحدى لفرعون وجبروته ما فيه، فلم يقف الأمر عند إبطال حيل فرعون بالنسبة للغلام «موسى» بل زاد الأمر إلى أن يوجد موسى فى قصر فرعون ويربى على مرأى ومسمع منه.

ثم يصدق الله وعده فى قوله سبحانه خطابًا لأمه ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ حيث يحرم عليه المراضع ولا يقبل ثدى المراضع وتأتى أخته وتعلم بحقيقة الحال فتخبرهم بأنها تعرف أهل بيت يكفلونه ويقومون على رعايته وتربيته.

قال تعالى فى السورة نفسها: ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١١ ـ ١٣].

وإذا كان هذا بعضًا من نشأة موسى وهو أمر الولادة فما بالكم بالنشأة كلها وما لابسها من حوادث ووقائع.. ثم ما بالكم بالقصة كلها وما فيها من محاربة سلطان طغى وبغى واستكبر حتى قال ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]؟! أفتساق تلك القصة كلها فى موضع واحد على نمط لا يتغير دون أن تورث سآمة أو مللاً؟ اللهم لا..

إذًا فالحكمة فى التكرير لهذا السبب وهو طول القصة، واضح لا غموض فيه وظاهر لا خفاء عليه مع ملاحظة ما تقدم من أن جزء القصة إنما ذكر فى السورة ليسايرها فى الغرض الذى سيقت له.

هذا ومن أسباب التكرير ـ أيضًا ـ تأكيد وتقوية ما فيها من عقائد وإيمان ببعض الحقائق الغيبية فتعاد القصة وتكرر لقصد إثبات هذا فى ذهن السامع وجعله بحيث لا ينفك عنه ويصير بالنسبة إليه كالطبيعة الثابتة.

لذلك نرى أن من تعريفات «العلم» عند العلماء أنه ملكة، أى كيفية راسخة فى النفس لا تزول بحال، وقالوا عن هذه الملكة إنها تحصل بممارسة الشخص مسائل العلم وقضاياه.. ونرى علماء الأخلاق مثلاً يعرفون «الخلق» بأنه كيفية راسخة فى النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة.

ومن كلامهم «الحلم بالتحلم والعلم بالتعلم والكرم بالتكرم..» وهذا يعنى أن الإنسان يتعود الحلم مرة بعد أخرى ويتكلفه ثم بعد ذلك يصير حليمًا بالطبع والعادة.. وهكذا فى كل خلق فاضل.

وتكرر القصة فى القرآن لغرض آخر هو إبراز المعنى الواحد فى صور عديدة وأساليب مختلفة كلها بالغة حد الإعجاز.. وفى ذلك ما يزيد فى تحدى العرب ويقطع عليهم كل أعذارهم ويسد عليهم كل باب يريدون اللجوء إليه.

وقد جاءت القصة فى تكرارها مطولة مرة وموجزة أخرى ومتوسطة بين الطول والقصر.. وعلى كل الأحوال كانت فى الذروة من البلاغة على خلاف ما عرف عن البلغاء من إجادة بعضهم فى الإيجاز وبعضهم فى الإطناب[١].

فسبحان من ليس كمثله شىء وهو السميع البصير.

* * *

(١) جاءت قصص فى القرآن الكريم غير مكررة مثل قصة يوسف وأصحاب الكهف ولقمان وأصحاب الأخدود والفيل وذى القرنين وولدى آدم... إلخ ولكل حكمة.

القصة فى القرآن ووجودها فى الخارج

بينا فيما سبق الهدف من وجود القصة فى القرآن والغاية من مجيئها فيه ومن المعلوم الذى لا يغيب أبدًا والثابت الذى لا ينسى إطلاقًا أن المتكلم بالقصة والحاكى لها ضمن القرآن الكريم هو الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، والذى له كل الجلال والإكرام، فهو إذ يقول فهو أصدق القائلين.. وإذ يحكم فهو أحكم الحاكمين.. يقضى فلا راد لقضائه ويحكم فلا معقب لحكمه ﴿**أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾ [الأعراف:٥٤] أنزل القرآن المجيد يحمل فى طيه وبين ثناياه الدليل القاطع على أنه وحى إلهى نزل على خاتم النبيين ﷺ للإنس والجن عامة، فمن لم يؤمن به من عموم الجن والإنس فهو كافر مخلد فى النار.

استجاب لهذا القرآن وآمن به من أنار الله بصيرته ورفع عن قلبه حجب الشك والارتياب، وأزاح عن نفسه الكذب والنفاق ـ فظفر بالعز الدائم وفاز بخيرى الدنيا والآخرة.. وأعرض عنه وكفر به من سفه نفسه وخسر وجوده وأضاع حياته فى تجارة غير رابحة؛ ولا شك أن فى الكافرين عوام وخواص.. فالخاصة منهم هم الذين حصلوا على بعض معارف دنيوية تتصل بالحوادث التاريخية، وبحث هؤلاء بحكم عملهم وعلى حسب ما رسموا لأنفسهم ـ فى حوادث الماضى فوصلوا إلى نتيجة معكوسة ومقالة مشئومة، هى ما قاله أحد الباحثين من كفرة الإنجليز واسمه «مرجليوث» منذ أكثر من أربعين سنة تقريبًا[1].. قال: «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللإنجيل أن يحدثنا عنهما وللقرأن أن يحدثنا ولكن هذا لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى بهذا الدليل» زادت هذه المقالة ذلك الرجل رجسًا على رجس وكفرًا على كفر، ولم يكن ذلك القول جديدًا منه فهو كافر بالقرآن كله عقيدة وأحكامًا وتشريعًا فلا يؤمن بما فيه من توحيد ولا يخضع لما جاء فيه من عبادات ولا يسلك سبيل المهتدين فى سلوك ولا عمل.

وكنا نود ألا تظهر هذه المقالة عند المسلمين وألا تكون معروفة عندهم ولكن

(١) هذه الفترة الزمنية ذكرها المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ سنة ١٩٦٨م.

لأمر ما قلد أحد المسلمين صاحب هذه الفكرة الخبيثة ونادى بها وأظهرها فى كتاب له. ثم افتضح أمره وقامت الضجة حول كتابه وصدوره هذا الكتاب وحكم بكفر صاحبه(١).

ونحب أولاً أن نبين أن إطلاق كلمة «مستشرق» على أمثال «مرجليوث» صاحب هذه المقالة الخاطئة ـ إطلاق مضلل خادع، فهو يستر وصفهم الحقيقى من الكفر والإلحاد، ويغطى دخيلتهم من الحنق على الإسلام والكيد له، ويخفى على الناس أساليبهم فى إفساد عقائد المسلمين والنيل من صرح مجدهم الشامخ الذى لا يتسامى إليه غيرهم.

وأولى أن يطلق على هؤلاء «مستكفرون ماكرون» وإن المهادنة التى نراها فى كتابة من رد عليهم من أهل الإسلام مهادنة ضارة انعدمت فيها الغيرة الإسلامية وامحت عندها الشجاعة الأدبية وانهدم فيها ركن قوى من أركان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ثم نقول بعد ذلك إن مقلدى هؤلاء المستكفرين لهم أسلوب غريب فى التعمية على الناس، لا يدخل هذا الأسلوب تحت موازين الكلام الصحيحة ولا ينضبط بضوابط الفهم الصادقة فترى أحدهم يقول مثلاً «أنا بشخصيتى العلمية التاريخية لا أومن بالقصة وبشخصيتى المسلمة القرآنية أومن بها» وهذا منطق معوج وكلام كله تلبيس وتضليل وإلا فكيف فى منطق الحكمة يعقل أن يكون الرجل مصدقًا فى وقت بحقيقة من الحقائق ومكذبًا بهذه الحقيقة عينها فى نفس الوقت كأنه لم يهتد إلى دليل ولم يقف على برهان؟!

وإذا كانت الأدلة لا تتعارض إلا إذا كانت متساوية فى القوة والثبات، متحدة فى درجات الصحة والاعتماد فإنا نقول لهؤلاء إن كانت شخصيتكم «التاريخية والقرآنية» متساوية فيما ذكر فلا يتأتى لكم أن تحكموا على قضية من القضايا بنفى أو إثبات، وإن كانت إحدى الشخصيتين راجحة على الأخرى فالحكم بمقتضاها.. ثم نقول إن كانت الراجحة عندكم هى الشخصية التاريخية وحكمتم بنفى القصة بناء على هذا فأنتم كافرون وإن كانت الراجحة عندكم هى الشخصية القرآنية كما

(١) هو الدكتور/ طه حسين فى كتابه (الشعر الجاهلى).

هى عند المسلمين أهل الحق والإيمان فأنتم مؤمنون ولا محيص لكم عن هذا.

هذا كلامنا مع مقلدى أئمة الكفر فى نفى قصة بناء الكعبة من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

أما كلامنا مع أئمة الكفر أنفسهم أمثال «مرجليوث» فإنا نقول: ليس عند هؤلاء إلا الشخصية التاريخية فهم كافرون بالقرآن كما قدمنا فالحوار معهم لا يفيد ما دام مصرًا على عناده وكفره، اللهم إلا ما كان من فائدة تعود على الإسلام وأهله فى حماية العقيدة من هؤلاء المضللين أو هداية من يريد الاهتداء والاندماج فى سلك أهل الحق والدين.

قالت هذه الطائفة إن القصص القرآنى فيه اختراع وإن قصة بناء إبراهيم للبيت الحرام مع ولده إسماعيل لا وجود لها فى واقع الأمر ﴿**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾ [التوبة: ٣٢].

وقالت تلك الطائفة الكافرة إن القحطانيين أهل الجنوب تغاير لغتهم لغة العدنانيين أهل الشمال فلو كان إسماعيل بمكة كما حكى القرآن وصاهر قبيلة جرهم القحطانية «العرب العاربة» لتوحدت لغتهم مع اللغة العدنانية لغة العرب المستعربة، إن اختلاف اللغتين يمنع هذا التزاوج، إن قصة إسماعيل فى القرآن وضعت واخترعت ووافق عليها نبى الإسلام للتقريب بين اليهود القحطانيين والمنتسبين إلى إسحاق، والعرب الذين يريدون الانتساب إلى إسماعيل أخى إسحاق».

إننا نقول لهؤلاء إن القرآن تحدى الكافة من إنس وجن وطلب إليهم أن يعارضوه وأن يأتوا بمثله إن استطاعوا فعجزوا: طلب إليهم أن يأتوا بكتاب مثله ثم بعشر سور ثم بسورة فكان عجزهم فى كل هذه المرات ظاهرًا وانقطاع حجتهم فيها واضحًا، الأمر الذى أصبح معلومًا لدى كل عاقل ومعروفًا عند كل من يريد أن يحترم نفسه ويحافظ على إنسانيته، ومعنى ذلك أن القرآن يحمل معه الدليل على أنه من عند الله تعالى، فمن قال غير ذلك فهو محجوج بهذا البرهان ومقهور به، وقد قال العلماء «إن تجويز ما قام الدليل على خلافه باطل» فليس لهذا الذى يقع فى تلك المخالفة إلا أنه معاند كافر لا تصلح منه مناظرة وما أجمل قول القائل:

إلى الله يدعى بالبراهيـن مـن أبى فمن لم يجب بادته بيض الصوارم

ثم نقول إن تحدى القرآن لعموم الجن والإنس لم يزل قائمًا إلى يومنا هذا وإلى الغد بعده، ونقول لهم إن كانوا يفقهون القول ويزنونه بموازين المنطق الصادق - هل هناك تلازم حتمى بين مصاهرة إسماعيل لقبيلة جرهم واتحاد اللغتين؟! فإن قالوا نعم، قلنا لهم إن الواقع يكذبكم فكم من مصاهرات تمت بين أناس مختلفى اللغات والعادات وكم من ارتباطات حصلت بين جماعات مختلفة التقاليد واللهجات مع احتفاظ كل من الجانبين بتقاليده ولغاته وعاداته.

وإن قالوا: لا، قلنا هذا هو المطلوب، على أن هذه المصاهرة وقعت من شخص إسماعيل عليه السلام مع قبيلة جرهم وقد انقضت مع انقضاء هذه المئات من السنين والأعوام فلو فرضنا جدلاً أن لها أثرًا على توحيد اللغات حين ذاك فقد انقضى هذا الأثر بمرور هذه القرون وتلك الأجيال ورجع اختلاف اللغتين كما كان ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

ثم جاءت طائفة بعد ذلك أنكرت معنى بعض القصص القرآنى كالطائفة السابقة ولكن باسم آخر وباعث جديد وهو «فنية القصة وأدبها»[1] وقالوا إن القصة فى القرآن عمل فنى وسوق أدبى ليس من الضرورى أن يلتزم الصدق والمطابقة للواقع وحكاية ما هو فى الخارج لأن هذه صفة الأدب وعمل الأديب، وبناء على ذلك فقد ضيعوا كثيرًا من الحقائق القصصية القرآنية، فعرش بلقيس لم ينقل من اليمن إلى الشام، ولم يتكلم الهدهد مع سليمان عليه السلام وكذلك لم يسمع من النملة قولها وهى تخاطب جماعة النمل ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ [النمل:١٨] وكذلك لم يتكلم عيسى عليه السلام فى المهد، إلى أشباه ذلك وأمثاله.

وكذلك قالوا لم يوجد فى الواقع التاريخى شخص اسمه «هامان» أيام فرعون موسى ولم يوجد أيضًا شخص اسمه «آزر» والد إبراهيم الخليل أو عمه، وليس هذا كله وأمثاله - بناء على زعمهم - إلا أثرًا من آثار فن القصة وأدبها، ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

(١) منهم الدكتور/ محمد خلف الله أحمد فى كتابه (الفن القصصى فى القرآن الكريم).

فعلى أى قاعدة وضعوا هذا الأسلوب وجاءوا بهذه الطريقة، وإنا لنعجب لهؤلاء كيف يرضون لعقولهم أن تنزلق إلى تلك المزالق المهلكة وأن تسفل إلى تلك الهوة السحيقة.. إنه تصرف فى الكلام على غير ميزان ودون ضابط، اللهم إلا ما كان فى نفوسهم من حقد على القرآن وما فيه من حقائق وما جاء به من علوم؛ إن هؤلاء يسيرون على وضع لم تألفه العقول ولم يعرفه أهل الفكر والنظر الصحيح.

ونقول: إن اختراع القصة وفنيتها لن يكون أبدًا إلا بين الناس فهم يفعلونه ويتداولونه فيما بينهم لأغراض قد تكون صحيحة، وذلك لأنهم عاجزون ولا يملكون قدرة ولا علمًا محيطًا بالماضى والحاضر والمستقبل فيلجأون إلى تصوير بعض الأمور كالشجاعة الخارقة والذكاء النادر مثلاً - إلى قصص خيالى وتمثيل مخترع لا وجود له إلا فى خيال من تخيله..

أما القرآن المجيد وقد أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض والذى أحاط بكل شيء علمًا والذى لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء.. فليس يجوز أبدًا عقلاً ولا شرعًا أن يكون فيه اختراع أو خيال ﴿ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا** ﴾ [الإسراء:٤٣] فهذا الفهم الذى فهمه هؤلاء فى حقائق القرآن القصصية إنما هو لهم وحدهم لا يشركهم فيه عاقل ولا يقرهم عليه إنسان وهم بهذا كافرون وللحق معاندون كارهون.

إن لغة العرب لا تعرف إلا الحقيقة والمجاز ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة تمنع إرادة المعنى الأصلى مع علاقة بينهما.. وذلك معلوم ومقرر لمن له أدنى اتصال بعلم البيان.

وليس هناك فيما ذكر على مذهبهم قرائن تمنع إرادة المعنى الأصلى الحقيقى، ولا علاقة كذلك توجد بين المعنيين خصوصًا إذا علمنا أن ما قالوا عنه إنه خيال إنما هو من الممكنات التى لا توجد إلا بقدرة قادر وقهر قهار، وأن الله تعالى يؤيد رسله عليهم السلام بالمعجزة وهى الأمر الخارق للعادة.

ومن الشناعة التى ما بعدها شناعة أن يقولوا «إن هامان شخص لا حقيقة لوجوده لأن التاريخ لم يثبته وإن كان قد نطق به القرآن» وكان الواجب ولابد أن يقولوا إن هامان شخص له جود وحقيقة لأن القرآن ذكره وإن لم يثبته التاريخ.

هذا، وقد يمثل الله جل وعلا للناس حقيقة من الحقائق فيصورها ببعض المحسوس المشاهد كما فى تمثيل الكافر المخذول والمؤمن الموفق بعبد مملوك ليس له قدرة على شىء، وآخر حر رزقه الله رزقًا حسنًا واسعًا فهو يتصدق به دائمًا.. إظهار لما بين المؤمن الموفق والكافر المخذول من بون شاسع وتباين كبير واضح، ولا يشترط فى هذه الحال أن يكون الممثل بهما شخصين معلومين بالتعيين بل يكفى وجود الجنس؛ وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل: ٧٥] لكن ليس هذا من المعنى الذى ساقوه ولا من النهج الذى قالوه..

وبيان ذلك أن تلك الطائفة عمدت إلى أشخاص مذكورة فى القرآن بالاسم والتعيين وقالوا عنها إنها لا حقيقة لها فى واقع الأمر بدعوى فنية القصة كما تقدم..

كأن فنية القصة قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى للشخص المذكور.

وأما الذى سقناه من قوله تعالى: ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا** ﴾.

فإن المقصود منه تشبيه وتمثيل المؤمن الموفق والكافر المخذول بحال رجلين «عبد، وحر» على ما وصفتهما الآية..

وما دام الأمر كذلك فليس لذات الرجلين قصد فى الآية إلا باعتبار حالهما وصفتهما فلا يبعد أن يكون غير معروفين بأعينهما..

ومن هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ** ﴾ الآيات من سورة الكهف فإنه تمثيل للطائفة المتجبرة التى أرادت من النبى ﷺ أن يطرد فقراء المؤمنين.. فالمثل مضروب للطائفتين إذ الرجل الكافر صاحب الجنتين هو بإزاء متجبرى قريش أو بنى تميم على الخلاف فى ذلك والرجل المؤمن المقر بالربوبية هو بإزاء فقراء المؤمنين.

وقال بعض المفسرين وظاهر المثل أنه بأمر واقع فى الوجود وعلى ذلك فسر أكثر المتأولين. اهـ.

ومعنى ذلك أنه يجوز فى غير الظاهر وعند غير الأكثر من المتأولين أن يكون

هذان الرجلان لا وجود لهما فى الواقع لأن المقصود هو حالهما وصفاتهما على الذى ذكرته الآيات، ويساعد على تجويز غير الواقع ذكر كلمة «مثلاً» فهى تشعر أن المقصود من المشبه به ذكر الحال والصفة. وقد يمتنع هذا التجويز مع كلمة «مثلاً» كما فى قوله تعالى من سورة يس: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ [يس:١٣، ١٤] إلى قوله سبحانه: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس:٣٠] فكل ما ذكر من المشبه به فى هذه الآيات حقيقة وموجود فى الواقع كما يعلم ذلك بالتتبع من له أدنى تأمل ونظر.

هذا ونسوق تقريرًا للمرحوم الشيخ محمود شلتوت كتبه تعليقًا على رسالة للدكتوراه سنة ١٩٤٧م موضوعها «الفن القصصى فى القرآن الكريم» يقول فضيلته[1]: يذكر المؤلف أن الذى دفعه إلى هذا البحث ما رآه من:

١ـ أن المستشرقين يطعنون على القرآن فيما جاء به من قصص وأخبار يرون أنها لا تتفق والواقع التاريخى الذى يعلمون، وأنها تدل على جهل محمد بالتاريخ.

٢ـ أن المسلمين منذ عهد النفر الأول الذين عاصروا النبى ﷺ قد استقبلوا كل ما ذكر فى القرآن على أنه تعبيرات جادة المراد منها معانيها فيما جاءت به وتأثرت عقليتهم بما جاء من الآيات الدالة على أنه يقص أنباء الغيب التى لم يكونوا يعرفونها فقالوا إن أخبار الأولين آية صدق النبى ودليل على إعجاز القرآن.

ثم يجمع بين هؤلاء المسلمين وأولئك المستشرقين فى حكم واحد إذ يقول «وليس من شك عندى فى أن مصدر الخطأ فيما ذهب إليه من آمن بهذه الأشياء وصدق كل ما فيها من تاريخ أو من أنكرها وادعى أنها أخطاء تاريخية أو قصص ملفقة جهل أولئك وهؤلاء أو تجاهلهم لما بين الأدب والتاريخ من علاقات».

هذا هو أهم ما دعاه إلى أن يسلك سبيلاً آخر فى فهم القرآن سماه «الفن القصصى» ورأيه فى ذلك يتلخص فى أن القصص القرآنى نمط من أنماط القصة الفنية التى لا يلتزم الفنان فيها الصدق وتحرى الواقع وإنما يعطى نفسه من الحرية ما

---

(١) ذكره الأستاذ/ محمد سيد كيلانى فى ذيل الملل والنحل للشهرستانى ص٨٧ ـ ط الحلبى سنة ١٩٦٧م.

يغير به ويبدل ويزيد ويخترع.

ولا يقف بهذا عند قصة أو قصص بعينها ولكنه يطرد هذا الشأن فى كل ما قصه القرآن سواء فى ذلك ما جاء عن الأنبياء والرسل والأمم وما جاء عن غيرهم، فيذكر قصة آدم وإبليس، وقصة الخليفة والملائكة، وقصة كلام عيسى فى المهد ونجاته من اليهود.. وقصة موسى والعبد الصالح.. إلخ.

ثم لا يقف عند القصص القرآنى بل يطرد هذا الحكم على غيره مما جاء فى الكتاب الكريم من أوصاف ونسب ماضية كانت أو مستقبلة فيذكر سؤال الله لعيسى يوم القيامة: ﴿**أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ [المائدة: ١١٦] ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**﴾ [البقرة: ٦].

يذكر ذلك وأمثاله فى مجال ما يقرر من أن القرآن ليس فيه ما يدل على أن أحداث هذه القصص تلتئم مع الواقع الفعلى أو لا تلتئم وأن هذه النسب والأوصاف تصدق أو لا تصدق وإنما هو أسلوب قصد به غرس فكرة وراء ما تدل عليه الألفاظ بمعانيها اللغوية المعروفة أو مشايعة الواقع النفسى الذى كان سائدًا عند المعاصرين استغلالاً لمعلوماتهم وإن لم تكن صحيحة فى سبيل تأييد الدعوة التى جاء بها.

وقد زعم أن هذا تأويل للآيات وخاصة آيات القصص التى هى عنده من المتشابه يجرى فيها مذهب السلف ومذهب الخلف من التسليم أو التأويل.

ويستند إلى ما عرف عند العرب من التمثيل وما جاء فى بعض تمثيلات القرآن وتشبيهاته على هذا الأسلوب الذى لا ينظر إلى الواقع وإنما يجرى الكلام فيه على ما ألفه العرب فى هذا الباب، كما زعم أن بعض المفسرين يقولون بمثل هذا إيحاء أو تصريحًا وذكر منهم الإمام الرازى والإمام محمد عبده.

هذه خلاصة فكرته وأهم عناصرها وعواملها.

ولا ريب أن هذه الأسس التى بنى عليها، الكاتب بحثه أسس فاسدة فما كان القرآن ليخضع فيما قصه من الأنباء لما زعموه من تاريخ يناقض أو يخالف ما فيه، فإن حال التاريخ قبل الإسلام كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده نفسه، كانت مشتبهة الأعلام حالكة الظلام فلا رواية يوثق بها ولا تواتر يعتد به بالأولى، يقول

هذا الشيخ محمد عبده فى نسبة قصص القرآن إلى التاريخ ومقارنتها به وقد قال فى هذا الصدد قبل ذلك: «يظن كثير من الناس الآن كما ظن كثير من قبلهم أن القصص التى جاءت فى القرآن يجب أن تتفق مع ما جاء فى كتب بنى إسرائيل المعروفة عند النصارى بالعهد العتيق أو كتب التاريخ» ثم يقول فى هذا الشأن نفسه: «وإذا ورد فى كتب أهل الملل أو المؤرخين ما يخالف بعض هذه القصص فعلينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله إلى نبيه ونقل إلينا بالتواتر الصحيح هو الحق وخبره الصادق وما خالفه هو الباطل وناقله مخطئ أو كاذب فلا نعده شبهة على القرآن ولا نكلف أنفسنا الجواب عنه».

وقد ذكر الأستاذ الإمام هذا المبدأ الذى لا يعرف مؤمن سواه فى كثير من مواضع التفسير، وإذن فلا قيام لشبهة يوردها المستشرقون على قصص القرآن وتاريخه، كما لا قيمة لما يوردونه على تشريع القرآن وعقائده، فالقرآن مهيمن على كل ما سواه من تاريخ وكتب سماوية، وهو مصدق لها فيما لم يحرف ومبين لما كانوا يخفون ويحرفون: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: ١٥].

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

تلك عقيدة المؤمنين وما كان القرآن وقد قامت الأدلة على أنه من عند الله بالذى يتحاكم فى قضاياه إلى تلك الجهالات التاريخية لا سيما فى حقبة اشتبهت أعلامها واشتد ظلامها كما يقول الشيخ محمد عبده أو بالذى تضره هذه الدعاوى التى ألفها الإسلام من خصومه منذ عهده الأول إلى يومنا هذا.

ولننظر بعد هذا فيما رمى به الكاتب المسلمين منذ العهد الأول، عهد المعاصرة للنبى ﷺ وعهد أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن عباس وابن مسعود ومن إليهم من أصحاب النبى وأهل اللسان العربى وقد سمعوا من رسول الله وتلقوا منه هذا الكتاب الكريم وفهموا معانيه التى يدل عليها بمقتضى أساليب اللغة العربية وقد طبعوا عليها ورضعوا لبانها، واستمر هذا هو الشأن على جميع عصور المسلمين

وعهودهم مدى أربعة عشر قرنًا.

ننظر فيما رمى هؤلاء جميعًا به من جهل أو تجاهل أو تأثر بما يخالف الواقع ـ أوقعهم فى فهم القرآن على غير وجهه الذى فطن إليه الأستاذ وأمثاله ممن يتناولون القرآن الكريم بمثل هذه الدراسات.

وختم الشيخ شلتوت تقريره قائلاً:

وإن القرآن إذا استقبلت دراسته على هذا النحو من الخلط والخبط فقد اقتحمت قدسيته وزالت عن النفوس روعة الحق فيه وزلزلت قضاياه فى كل ما تناوله من عقائد وتشريع وأخبار وأحوال مستقبلية كالبعث والحشر والحساب والجنة والنار... إلخ.

وانفتح لكل إنسان أن يقول فى كل هذا: ليس له مدلول ولا واقع يدل عليه ولكنه سيق لمجرد بعث الرغبة أو الرهبة أو العظمة أو تقويم النفوس وإصلاح المجتمعات[1].

﴿ **سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** ﴾ [النور: ١٦].

﴿ **إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

ذلك هو الرأى فى هذه الرسالة وفيما تجرأ به مؤلفها على كتاب الله وإنها لشر مستطير من شأنه أن يفتح أبوابًا من الفتن إذا مكن لها اجتاحت الدين والعقيدة والقرآن فكانت هى الحالقة.

وللمرحوم عباس العقاد[2] رأى وجيه فى علاقة القصص الدينى بالعلم والتاريخ، فبعد أن وضح أن هؤلاء الذين أنكروا القصص الدينى أو تشككوا فيه لم يكن لهم سند سوى أنها وردت فى الكتب الدينية فكانوا بذلك مخالفين للتحقيق العلمى فى صميمه بالرغم من زعمهم الانتساب إليه، وهذا التسرع فى الإنكار الجزاف والشك بغير دليل رعونة ونقيصة فكرية ثم يقول:

---

(١) وفعلاً فقد وقع ما تنبأ به المرحوم الشيخ شلتوت، وجاء الدكتور/ مصطفى محمود فى كتابه (التفسير العصرى) بكثير من هذا الخبط والخلط.

(٢) من كتاب الإسلام دعوة عالمية ـ بتصرف.

لم تنقض على هذا الموقف من بعض العلماء فترة وجيزة حتى ثبت لهم هذا الخطأ فى حق العلم فضلاً عن الخطأ فى حق الدين فأصبحوا أقرب إلى الأناءة والتمحيص وراحوا يعيدون النظر فى كل ما قرروه آنفا على ضوء حديث من أضواء الكشوف العلمية، ومنها كشوف الأحافير وكشوف الأرصاد الفلكية التى يسهل الرجوع إليها للبحث فيما حدث أو لم يحدث من مقارنات الكواكب وعوارض الكسوف.

أنكروا قصة الطوفان والسفينة فوجد العلماء الحفريون هذه القصة مكتوبة على حجارة قديمة من آثار وادى النهرين، ووجدوها منقولة متواترة على الألسنة والآثار بين أقوام كثيرين من أمم المشرق والمغرب.

وأنكروا قصة سيل العرم وقصة أبرهة الحبشى وهلاك جيشه فلم يمض زمن حتى وجدوا آثار السد ووجدوا عليها اسم أبرهة ملقبًا بالأمير «التابع لملك الحبشة وسبأ وريدان وحضر موت واليمامة وعرب الوعر والسهل»

وأنكروا قصة عاد وثمود وظنوا أن هذه القبائل لم يكن لها وجود تاريخى فتبين لهم من مراجعة المؤرخين الأقدمين أنها مذكورة فى تاريخ بطليموس، وأن عاد إرم هى عاد راميت اليونانية وأن أخبارها محفورة على آثار هيكل «مدين» التى عثر عليها المؤرخ التشيكى موزيل.

إن القصص الدينى لا ينبغى بحال من الأحوال أن يرفض بجرة قلم أو يقال إن البحث فيها مفروغ منه لأنها من أساطير الأولين.

وإن التعجل إلى الإنكار برئ من دعوى العلم وأمانة العلماء ويجب أن نفهم الحقيقة العلمية على نحوها فلا نخلط بينها وبين حقائق الغيب وحقائق الضمير.

* * *

الإسرائيليات فى التفسير بالمأثور

يراد بالإسرائيليات هذا النوع من الكلام المنقول عن بنى إسرائيل خصوصًا اليهود، والذى لا أساس له من الصحة والذى لا تعلق له بالأحكام الشرعية، وقد وجد هذا النوع عند المتقدمين فى التفسير بالمأثور كالطبرى والواقدى والثعالبى.

ويوضح ابن خلدون فى مقدمته السبب فى وجود الإسرائيليات فى هذا النوع من التفسير فيقول: والسبب فى ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شىء مما تشوق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى.

وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ باديةً مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حِميَر الذين أخذوا بدين اليهود فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا يتعلق بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها: مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك.

وهؤلاء هم كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام، وغيرهم فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم فى أمثال هذه الأغراض وفى أخبار موقوفة عليهم ليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فى الصحة التى يجب بها العمل، ويتساهل المفسرون فى مثل ذلك وملئوا الكتب بهذه المنقولات، وأصلها ـ كما قلنا ـ عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك إلا أنهم بعد صيتهم، وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات فى الدين والملة فتلقيت بالقبول من يومئذ.

فلما رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التفاسير كلها، وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك فى كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس، وتبعه القرطبى

فى تلك الطريقة على منهاج واحد فى كتاب آخر مشهور بالمشرق. اهـ.

يبين لنا ابن خلدون بهذا فى تحقيق وبراعة السبب الذى من أجله كانت الإسرائيليات فى هذا النوع من التفسير ثم يذكر أن العلماء لم يقفوا أمامه حيارى مستسلمين بل دققوا النظر وحققوا القول، ويعلم من هذا أيضًا أن الإسرائيليات يدور أمرها على الأخذ من اليهود وينتهى النقل فيها إليهم.

وما دام الأمر كذلك وهم قتلة الأنبياء والمتجرئون على الله تعالى بأقبح أنواع الكفر وأبشع صفات الزيغ والإلحاد فقد تسرب منهم إلى قصص الأنبياء فى القرآن الكريم مالا يتفق وجلال الأنبياء وما لا يتأتى مع منصبهم من اختيار الله تعالى لهم مبلغين عنه الشرائع إلى خلقه.

نعم رموا الأنبياء بما هم عنه براء فقالوا فى داود «إنه أبصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها فغطى بدنها وهى امرأة أوريا فاحتال على أوريا بإرساله إلى ميدان الغزو والقتال مرارًا وتكرارًا حتى قتل فلم يحزن داود على قتله كعادته فى الحزن على الشهداء ثم تزوج امرأته».

ولكن العلماء غيرةً منهم على دين الله وحفظًا لمقام الأنبياء وجلاله حكموا على مثل هذا القول بالبطلان والفساد، قال أبو السعود فى تفسيره: «إن هذا إفك مبتدع ومكر مخترع تمجه الأسماع وتنفر منه الطباع، ويل لمن ابتدعه وأشاعه؛ وتبًا لمن اخترعه وأذاعه ولذلك قال على رضى الله عنه: من حدّث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة وذلك حد الفرية أى الكذب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام».

وكيف لا وقد ثبت ضمن ما يجب لهم صفة الأمانة وهى حفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهى عنه ولو نهى كراهة أو خلاف الأولى فهم معصومون عن جميع المعاصى المتعلقة بظاهر البدن كالزنا وشرب الخمر والكذب وغير ذلك من منهيات الظاهر، وعن جميع المعاصى المتعلقة بالباطن من الحسد والكبر والرياء وغير ذلك من منهيات الباطن.

والمراد المنهى عنه ولو صورة فيشمل ما قبل النبوة وما فى حالة الصغر ولا يقع منهم مكروه ولا خلاف الأولى بل ولا مباح، على وجه كونه مكروهًا أو خلاف

الأولى أو مباحًا وإذا وقع صورة ذلك منهم فهو للتشريع فيصير واجبًا أو مندوبًا فى حقهم.

فأفعالهم عليهم الصلاة والسلام دائرة بين الواجب والمندوب بل فى الأولياء الذين هم أتباعهم من يصل لمقام تصير فيه حركاته وسكناته طاعات بالنيات - ودليل وجوب الأمانة لهم عليهم السلام أنهم لو خانوا بفعل محرم أو مكروه أو خلاف الأولى لكنا مأمورين به لأن الله تعالى أمرنا باتباعهم فى أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم من غير تفصيل، وهو تعالى لا يأمر بمحرم ولا مكروه ولا خلاف الأولى فلا تكون أفعالهم محرمة ولا مكروهة ولا خلاف الأولى والله ولى التوفيق والهداية.

* * *

دفع شبه أثيرت حول القرآن الكريم

ساق أهل الزيغ والضلال ومن لا خبرة لهم بأساليب الكلام ولا معرفة عندهم بأصول النقل الصحيح التاريخى، شبهًا منها:

الشبهة الأولى:

إن القرآن الذى بأيدينا اليوم ناقص وقد سقط منه شىء وقد روجوا لشبهتهم هذه بما حسبوه - خطأ - أنه مساعد لهم فى توهمهم ومعين لهم فى كذبهم وافترائهم ومن ذلك:

١- قوله تعالى فى سورة الأعلى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦، ٧] فالاستثناء يدل على أن الرسول قد ينسى من القرآن ما شاء الله أن ينساه.

٢- وقول الرسول ﷺ: «رحم الله فلانًا لقد أذكرنى كذا وكذا آية كنت أنسيتهن».

٣- ما روى أن أبى بن كعب جعل القنوت فى القرآن وكان يرويه ويكتبه فى مصحفه مع أنه ليس فى القرآن الذى بأيدينا.

٤- غالب الآيات لم يكن لها سند سوى حفظ الصحابة وكان بعضهم قدمات عندما جمع أبو بكر القرآن فلم يجمع إلا ما كان يحفظه الأحياء.

٥- الكتابة على العظام والرقاع ونحوها كانت غير منظمة ولا مضبوطة وقد ضاع بعضها بفعل الزمان.

٦- روى أن الحجاج قام بنصرة بنى أمية فجمع المصاحف وأسقط منها ما كان قد نزل فيهم وكتب مصاحف جديدة ووجهها إلى الأمصار وهى الموجودة الآن.

وللرد على تلك الشبهات نقول:

١- أما ما جاء فى سورة الأعلى فإن الاستثناء يعلق وقوع النسيان على مشيئة الله تعالى إياه، والمشيئة لم تقع لأن الله تعالى قد ضمن لنبيه ﷺ أن يجمع له القرآن فى صدره، ووعده حق، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧]

والاستثناء صورى والداعى إليه أمور، منها إعلام الله الخلق أن عدم نسيان المصطفى ﷺ بمقتضى وعده إياه فى قوله: ﴿فَلا تَنسَىٰ﴾ [الأعلى:٦] إنما هو محض فضل من الله وإحسان، ومنها إعلامهم أيضًا أن نبيهم فيما خصه الله من العطايا والخصائص لم يخرج عن دائرة العبودية، ومنها إشعار النبى نفسه أنه دائمًا مغمور بنعمة الله وعنايته ما دام متذكرًا للقرآن لا ينساه، ويجوز أن يكون الاستثناء حقيقيًا ويكون المستثنى هو منسوخ التلاوة دون غيره كما قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة:١٠٦] الآية..

وما ورد من أنه ﷺ نسى شيئًا كان يذكره فذلك فى غير ما أنزل الله من الكتاب والأحكام التى أمر بتبليغها.

٢ـ وأما الخبر فإنما يدل على أن قراءة الرجل ـ وهو عباد بن بشار ـ للآيات ذكرت النبى ﷺ إياها وكانت قد غابت عن ذاكرته وهذا النوع وإن سمى نسيانًا لا يزعزع الثقة بالقرآن فإن الرسول كان قد حفظ هذه الآيات قبل أن يحفظها عباد واستكتبها كتاب وحيه وبلغها للناس وحفظوها عنه، فالخبر لا يفيد أن هذه الآيات قد انمحت من ذهن النبى جملة، إنما غاية ما تفيد كانت غائبة عنه ثم ذكرها، والدليل قائم على استحالة النسيان التام فيما يخل بوظيفة الرسالة، وعلى هذا فالأصل الذى قامت عليه كتابة القرآن وجمعه ـ سليم قويم ويحققه هنا وجود هذه الآيات مكتوبة فى الوثائق ووجودها محفوظة فى صدور الصحابة الذين بلغ عددهم مبلغ التواتر والمعلوم أن دستور جمع القرآن هو عدم كتابة شىء فى المصحف إلا ما تظاهر الحفظ والكتابة والإجماع على قرآنيته.

٣ـ وأما أن الصحابة حذفوا من القرآن القنوت الذى كان مكتوبًا فى مصحف أُبَىّ بن كعب فلأنه لم تثبت قرآنيته حتى يكون فى عداد القرآن ومن يدعى قرآنيته فعليه البيان.

وليس وجود القنوت فى مصحف أُبَىّ بن كعب دليلاً على قرآنيته فقد كان بعض الصحابة يكتبون القرآن لأنفسهم فى صحف أو مصاحف خاصة بهم، ولندرة أدوات الكتابة ربما كتبوا فى صحفهم ما ليس بقرآن مما يكون تأويلا لبعض ما غمض من معانيه أو مما يكون أدعية تتلى فى الصلاة كما يتلى القرآن وهم

يعلمون أنه ليس بقرآن وقد أمنوا على أنفسهم اللبس وهم مع هذا أحرص الناس على الاحتياط للقرآن وأيقظ الخلق فى حراسة القرآن، ولهذا لم يعتبروا فى جمعه إلا ما ثبت بالتواتر، ومن المقرر أن عثمان رضى الله عنه قد جرد المصحف من كل ما علق به واستبقى ما ثبت بالتواتر قرآنيته فلا لبس ولا إبهام ولا حذف ولا إهمال.

٤ـ وأما أن كثيرًا من آيات القرآن لم يكن لها قيد سوى حفظ الصحابة الذين قتلوا أو ماتوا فمردود بأن كثيرًا غيرهم كان يحفظه أيضًا فلم يمت القراء كلهم وقد كان من حفظته أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وزيد بن ثابت وغيرهم كثير، وهؤلاء عاشوا حتى جمع القرآن فى عهد أبى بكر وعاش منهم من حضر نسخ المصاحف فى عهد عثمان وكانت كتابة زيد بن ثابت فى كلتا المرتين لكل القرآن فلم تفلت منه كلمة أو حرف.

٥ـ وأما أن الكتابة فى العظام ونحوها كانت غير منتظمة فيرد عليه بأن جمع القرآن وترتيب آياته وسوره كانت توقيفًا، وأن الرسول ﷺ كان يرشد الصحابة إلى موضع الآية من سورتها وموضع السورة من أختها وكان يقرئهم القرآن على هذا الترتيب الذى نقرأه الآن وصار ذلك مستفيضًا حفظًا وإن تفرق فى الكتابة، والذى هو ثابت أن التعويل فى جمع القرآن كان على الحفظ والرواية دون سواهما.

٦ـ وما نسب إلى الحجاج هو كذب لا دليل عليه فلم يجمع الحجاج المصاحف وبالتالى لم ينقص ولم يزد وكيف يتصرف الحجاج فى القرآن وأئمة الدين موجودون فى عهده ويسكتون ثم إنه مع هذا كان عاملاً فى إحدى الولايات لا أكثر فكيف يستطيع أن يجمع المصاحف من جميع الولايات ويتصرف فيها بما يهواه.

سبحان الله.. هذا بهتان عظيم.

الشبهة الثانية:

وهى على عكس الأولى فقد قالوا إن القرآن حصلت فيه زيادات عند الجمع لأن آية المتعة لم تكن فى مصحف على بن أبى طالب وكان يضرب من يقرأها، ولأن ابن مسعود أنكر المعوذتين، كما أن فى القرآن كلامًا لأبى بكر وهو ﴿وَمَا

مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وكلامًا لعمر هو ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وننقض هذه الشبه بأنه لم يصح ما نُقل عن على وابن مسعود أنهما أنكرا ما ذكر من آية المتعة والمعوذتين كيف وقد ثبتت قرآنية ذلك بالتواتر، وعلى فرض صحة ما نقل يكون إنكارهما قبل علمهما بالقرآنية فلما تبين لهما ذلك وعم التواتر وانعقد الإجماع كانا فى مقدمة من آمن بالقرآنية.

أما آية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ﴾ فقد قالها أبو بكر حين مات رسول الله وذهل الصحابة لهول الحادث حتى كأنهم لم يعلموا أن هذه الآية نزلت فلما تلاها أبو بكر ذكرهم بها وقد كانت نزلت قبل وفاة المصطفى ﷺ ببضع سنين.

وأما قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فمثار الشبهة فيه أنها من موافقات عمر، فقد قال للرسول ﷺ: (لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزل ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ وبالتأمل يرى أن بين الكلامين فرقًا فى العبارة، وتحقيق القرآن لأمنيات عمر لا يدل على أن ما نزل تحقيقًا لها يكون من كلام عمر.

ويجدر بنا فى الرد على هاتين الشبهتين أن نذكر هذا الرد ملخصًا لكثرة تداول هاتين الشبهتين على ألسنة المارقين فنقول: خلاصة الرد هو أن التواتر قد قام، والإجماع قد انعقد على أن الموجود بين دفتى المصحف الآن هو كتاب الله من غير زيادة ولا نقص ولا تغيير ولا تبديل، والتواتر طريق العلم، والإجماع سبيل الحق ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ ﴾ [يونس: ٣٢].

قال الطبرسى فى مجمع البيان ما نصه: «أما الزيادة فى القرآن فمجمع على بطلانها وأما النقصان فهو أشد استحالة ثم قال: إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة وأشعار العرب المسطورة فإن العناية اشتدت والدواعى توافرت على نقله وحراسته وبلغت حدًا لم يبلغه شىء مما ذكرنا لأن القرآن مفخرة النبوة ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية، وعلماء المسلمين قد بلغوا فى حفظه وحمايته الغاية حتى لقد عرفوا كل شىء من إعرابه، وقراءته، وحروفه، وآياته، فكيف يجوز أن يكون مغيرًا أو

منقوصًا مع العناية الصادقة والضبط الشديد؟!

الشبهة الثالثة:

قالوا روى عن ابن مسعود أنه قال «يا معشر المسلمين أعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل والله لقد أسلمت وإنه فى صلب رجل كافر، ويعنى بهذا الرجل زيد ابن ثابت وهذا يدل على أن ابن مسعود وهو ذو المكانة العظمى فى الإسلام لم يكن موافقًا على هذا الجمع وبالتالى يدل على أن القرآن الذى بأيدينا الآن ليس موضع ثقة من جميع الصحابة.

والجواب:

أن هذا الكلام إن صح عن ابن مسعود فإنما يدل على أنه يثق بنفسه فى جمع القرآن أكثر من ثقته بزيد وأنه أولى من زيد أن يسند إليه جمع القرآن.

ولا يدل مطلقًا على الطعن فى جمع القرآن ثم إن ثقة ابن مسعود بنفسه تقدير منه لنفسه ولا شك أن تقدير أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم من أجلاء الصحابة لزيد بن ثابت أصدق من تقدير ابن مسعود لنفسه.. هذا وقد توافر لزيد ابن ثابت كما هو معلوم من المؤهلات ما جعله أهلاً لإسناد هذا العمل إليه ثم أنه لم يكن يعمل وحده بل كان معه غيره من أجلاء الصحابة وخيار الحفاظ مع إشراف عثمان وكثير من الصحابة على هؤلاء الذين وكل إليهم أمر الجمع، فاعتراض ابن مسعود على فرض صحته كان منصبًا على طريقة تأليف لجنة الجمع لا على صحة نفس الجمع، وقد يرجو المثوبة باشتراكه فى جمع القرآن، وغضب لحرمانه من هذا الثواب وبعد أن زال عنه الغضب عرف حسن اختيار عثمان.

* * *

دفع شبه أثيرت حول رسم المصحف وكتابته

الشبهة الأولى:

روى عن عثمان أنه لما عرض عليه المصحف قال «أحسنتم وأجملتم» إن فى القرآن لحنًا ستقيمه العرب بألسنتها، كما روى أنه لما وجد حروفًا من اللحن قال: «لا تغيروها فإن العرب ستغيرها أو قال ستعربها بألسنتها، لو كان الكاتب من ثقيف، والمحلى من هذيل لم يوجد فيه هذه الحروف»

والجواب:

أن ما جاء فى هاتين الروايتين ضعيف الإسناد وأن فيهما اضطرابًا وانقطاعًا ويبعد أن يصف عثمان نسَّاخ المصحف بأنهم أحسنوا وأجملوا ثم يصف الذى نسخوه بأن فيه لحنًا. .

وعلى فرض صحته يمكن تأويله بما يتفق والصحيح المتواتر عن عثمان من نهاية التثبت والدقة فيراد بكلمة «لحنًا» قراءة ولغة، وهو معنى متعارف فى اللغة، وبه جاء قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] والمعنى أن فى القرآن أو فى رسمه وجهًا فى القراءة لا تلين به ألسنة العرب جميعا ولكنها لا تلبث أن تلين به ألسنتهم جميعًا بالمران.

الشبهة الثانية:

روى عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ﴾ [النساء: ١٦٢] ويقول هو من لحن الكتاب.

والجواب:

أن ابن جبير لم يرد باللحن الخطأ وإنما يريد اللهجة والوجه كما تقدم فى توجيه رواية عثمان السابقة والدليل على ذلك أن ابن جبير كان يقرأ بهذه القراءة فلو كانت خطأ ما قرأ بها.

والكلمة من سورة النساء واقعة بين مرفوعين فى آية ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ﴾ وقرئ بالرفع يعنى «والمقيمون الصلاة» عطفًا على قوله: ﴿الرَّاسِخُونَ﴾.

الشبهة الثالثة:

روى عن ابن عباس:

١- أنه قال فى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧] إن الكاتب أخطأ والصواب «حتى تستأذنوا».

٢- وأنه قرأ (أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا) فقيل له إنها فى المصحف ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ﴾ [الرعد:٣١] فقال أظن الكاتب كتبها وهو ناعس.

٣- وأنه كان يقول فى قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] إنما هى «ووصى» التزقت الواو بالصاد ولو كان قضاء من رب لم يستطيع أحد رد قضاء الرب ولكنها وصية وصى بها العباد.

٤- وأنه قرأ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء:٤٨] فقال: احذفوا هذه الواو واجعلوها فى ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ [آل عمران:١٧٣] وروى واجعلوها فى ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [غافر:٧].

٥- وأنه قال فى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور:٣٥] إنما هى «مثل نور المؤمن كمشكاة».

والجواب:

أن كل ما روى عن ابن عباس فى هذه الأمور الخمسة ونحوها لا يمكن صحته لأن ابن عباس قد أخذ القرآن عن زيد بن ثابت وأُبَىّ بن كعب وهما كانا فى جمع المصاحف فى عهد عثمان وكان زيد فى الجمع على عهد أبى بكر أيضًا، وكان من كتاب الوحى، وابن عباس يعرف ذلك ويوقن به فمحال إذن أن ينطق لسانه بكلمة فيها رائحة اعتراض على جمع القرآن ورسم المصحف فهذه الروايات غير صحيحة وابن عباس برىء منها..

الشبهة الرابعة:

ورد عن هشام بن عروة عن أبيه قال: سألت عائشة عن لحن القرآن، عن قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ [طه:٦٣] وعن قوله سبحانه: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ﴾ [النساء:١٦٢] وعن قوله جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ [المائدة:٦٩] فقالت: يا ابن أختى هذا من عمل الكتاب قد أخطأوا فى الكتابة.

والجواب:

أن هذه الرواية مهما كان سندها من الصحة فإنها مخالفة للمتواتر القاطع فلا يعول عليها. . على أن بعضها لم يصح عن عائشة رضى الله عنها[١].

والحمد لله أولاً وأخيراً، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليم كثيراً.

١٩ من شوال سنة ١٣٨٧هـ

١٩ من ينـاير سنة ١٩٦٨ م

(١) ثم هى موافقة لوجه من وجوه النحو العربى يعرفه أهل اللغة.



المبحث الثانى

مفاهيم إسلامية

- العلم.
- الإيمان.
- التقوى.
- العقيدة الصحيحة أولاً.
- الفوز الأكبر فى طاعة الله ورسوله.
- المعارف الدنيوية ليست علماً.
- النظر والتفكير مفتاح العبادة.
- ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

العلم

من الكلمات التى حرفها بعض أهل العصر ومالوا بها عن معناها الصحيح كلمة «العلم»؛ فقد أرادوا بها كل ما يعلم حتى ولو كان مهنة من المهن أو صنعة من الصنائع ونقلوا خصائص العلم ومميزاته لهذا العموم، وفى ذلك من الخلط والتشويه للحقيقة ما فيه، فهناك علم له معناه وله خصائصه من الكرامة والرفعة وهناك صنعة لها فائدتها ومعناها الذى يليق بها. . فهناك فرق واضح بينهما لا بد من بيانه. .

قال الإمام زاده فى حواشيه عند قول البيضاوى فى أول كتابه «إن علم التفسير لا يليق تعاطيه إلا لمن برع فى العلوم الدينية كلها أصولها وفروعها وفاق فى الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها» قال ما يأتى:

«العلم إن لم يتعلق بكيفية العمل كان مقصودًا فى نفسه ويخص باسم العلم وإن كان متعلقًا بها كان المقصود منه ذلك العمل ويسمى صناعة فى عرف الخاصة. . .

وينقسم العلم الذى يتعلق بكيفية العمل ـ إلى قسمين:

قسم يمكن حصوله بمجرد النظر والاستدلال كالطب.

وقسم لا يحصل إلا بمزاولة العمل كالخياطة وهذا القسم يخص باسم الصناعة فى عرف العامة، وسميت الفنون الأدبية بهذا الاسم لتوقف أدب النفس فى المحاورة والدرس عليها، وعرفوا علم الأدب ـ وقد يسمى علم العربية ـ أيضًا بأنه علم يحترز به عن الخلل فى كلام العرب لفظًا أو كتابة، وقسموه إلى اثنى عشر قسمًا بعضها أصول وهى اللغة، والصرف، والاشتقاق، والنحو، والمعانى، والبيان، والعروض، والقافية، وبعضها فروع وهى الخط وقرض الشعر والإنشاء والمحاضرات (المحاورات) ومنه التواريخ وأما علم البديع فقد جعلوه ذيلاً لعلمى المعانى والبيان لا قسمًا برأسه. اهـ.

ولعل فى هذا دليلاً واضحًا على التفرقة بين العلم الذى يرفع الله قدره،

والصنعة التى ترتبط بكيفية العمل الدنيوى لتحصيل المعاش كالخياطة والنجارة وما إليها، أو ترتبط بكيفية العمل الذى هو وسيلة إلى العلم الصحيح كعلم الصرف والنحو وما إليها، أو ترتبط بكيفية العلم الذى هو فى خدمة الجسم الحيوانى كالطب وإن كان يطلق على الكل أنه علم بمعى إدراك المعلوم.

هذا وإنه لمن المستحسن أن نبين منبع القسم الأول (العلم المقصود فى نفسه) فنقول إنه هو الوحى المحمدى (قرآن وسنة) إذ هو الجامع لما سبق من الشرائع والمهيمن عليها فقد نسخ قبله كل كتاب ومحيت قبله كل شريعة، يقول عز من قائل: ﴿**وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١١٣].

نقل سيدى عبد الرحمن الثعالبى الجزائرى عند هذه الآية عن أبى بكر ابن العربى:

وهذه العلوم ثلاثة أقسام:

أولا: توحيد.

ثانيا: تذكير.

ثالثًا: أحكام.

ثم قال ابن العربى: «وعلم التذكير هو معظم القرآن فإنه مشتمل على الوعد والخوف والرجاء والقرب وما يرتبط بها ويدعو إليها ويكون عنها.. وذلك معنى تتسع أبوابه وتمتد أطنابه».

ويقرب من هذا ما قاله بعض العلماء:

العلم ثلاثة أقسام: التوحيد وأحوال القلب والشريعة.

فأما علم التوحيد فهو أن يعرف الشخص أن له إلها عالمًا قادرًا حيًا مريدًا متكلمًا سميعًا بصيرًا واحدًا متصفًا بصفات الكمال منزهًا عن النقصان ليس كمثله شيء، وأن يعرف أن لله ملائكة وهم عباده لا يعصونه فيما أمرهم به ويفعلون ما يأمرهم به لا يأكلون ولا يشربون، وأن يعرف أن له كتبًا منزلة وكلها منسوخة بالقرآن وأن يعرف أن له رسلاً أرسلهم إلى الخلق أولهم آدم عليه السلام وآخرهم سيدنا محمد ﷺ وأن شريعته باقية إلى يوم القيامة، وأن يعرف أن سؤال منكر

ونكير والحشر والنشر حق، والجنة والنار حق والحساب والميزان والصراط حق، وأن يعرف أن القدر خيره وشره من الله تعالى ولا يجرى شىء فى الوجود إلا بإرادته ومشيئته.

وأما علم أحوال القلوب فهو أن يعرف الشخص أن للقلب أخلاقًا محمودة فيفعلها وأخلاقًا مذمومة فيتباعد عنها: أما المحمودة فالتوكل على الله تعالى والإخلاص له سبحانه والحمد والشكر على النعم والتوبة من المعاصى، والخوف والرجاء والزهد والمحبة والصبر والرضا بالقضاء وذكر الموت، أما المذمومة فالحرص على الطعام والشراب وكراهية الجوع مع أن فيه فوائد منها صفاء القلب ورقته وذل النفس وكسر الشهوات وزوال النوم المانع من العبادة، ومن المذمومة أيضًا الحرص على الكلام فيما لا يعنى فللسان آفات كثيرة والغالب منها الغيبة والكذب والمدح والمزاح، والغضب والحسد والبخل وحب الجاه وحب الدنيا والكبر والعجب والرياء وغير ذلك من أمراض القلوب.

وأما علم الشريعة فكل ما يتعين عليك فعله فالواجب عليك معرفته لتؤديه على حقيقته كالطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من أنواع العبادات والمعاملات والمناكحات، وأفضل العبادات البدنية الصلاة لأن العبادات إما قلبية كالإيمان والتفكر والتوكل والصبر والورع والزهد ونحوها، وإما بدنية كالصلاة والصوم والحج، والقلبية أفضل من البدنية، وأفضل القلبية الإيمان ولا يكون إلا واجبًا، وأفضل البدنية الصلاة لأنه اجتمع فيها ما تفرق فى غيرها من ذكر الله تعالى ورسوله ﷺ وقراءة وتسبيح وطهارة وستر عورة واستقبال قبلة وترك أكل وشرب وغير ذلك، وزادت بالركوع والسجود وغيرها.

هذا هو العلم فمن عرفه فهو العالم ومن لم يعرفه عن تقصير فى البحث والنظر فهو الجاهل ومن لم يؤمن به فهو الكافر. مهما أتقن من الصناعات ومهما نجح فى كشف خبايا الأرض واستخراج ما فيها من معادن ومهما حلق فى الجو وقطع أبعاد المسافات.. فهذا كله لن يغنى من الحقيقة شيئًا.

نعم قال أهل العلم إن الصناعات فرض كفاية بمعنى أن المطلوب هو حصولها فى الأمة لا تحصيلها من كل فرد فإذا قام بها بعض الأمة سقط الطلب عن الباقين

وإلا أثم الجميع ولنتذكر دائمًا قول الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧].

ومما يدلك كذلك دلالة صريحة قوية على ما تقدم فى معنى العلم قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وقول الرسول ﷺ كما فى الصحيحين: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد ولكن يقبضه بموت أهله حتى إذا لم يَبْقَ عالم - أو لم يُبْقِ عالمًا - اتخذ الناس رءوسًا جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا».

وقوله عليه الصلاة والسلام أيضًا كما رواه ابن ماجه فى باب فضل العلم والمتعلم: «الناس رجلان عالم ومتعلم وسائر الناس همج لا خير فيه».

فليتأمل قوله فى حديث الصحيحين «انتزاعًا ينتزعه من العباد» الأمر الذى يدل على أن العلم هو وحى إلهى ثبت فى صدور الناس، وقوله «فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» الأمر الذى يدل على أن العلم نور إلهى وهداية ربانية وهم قد جهلوها.

هذا ولأن العلم بالمعنى الذى تقدم ذكره هو أساس السعادة والعمدة فيها قال العلامة الدوانى حسبما نقله القاسمى فى كتابه دلائل التوحيد: «ذكر الفقهاء أنه لا بد أن يكون فى كل حد من مسافة القصر شخص يعلم تفصيل الدلائل بحيث يتمكن من إزالة الشبه وإلزام المعاندين وإرشاد المسترشدين، ويحرم على الإمام إخلاء مسافة القصر عن مثل هذا الشخص، كما يحرم عليه إخلاء مسافة العدوى وهى التى يمكن للمبكر إليها الرجوع إلى بيته ليلاً عن العالم بظواهر الشرع والأحكام التى يحتاج إليها العامة.

وناهيك بإعداد جماعة قارئى القرآن وإقرائه للمريدين.. ثم قال القاسمى نقلاً عن الأصفهانى:

فالعالم أفضل المجاهدين الذابين عن الدين، والجهاد جهادان: جهاد بالبنان

وجهاد بالبيان».

ومن هنا قال فى درة الناصحين «وفى الكواشى من شتم امرأة من أهل العلم بكلمة الجماع يكفر وتطلق امرأته طلاقًا بائنًا عن محمد - من أهل الفقه -، وقال الصدر الشهيد فى فتاوى بديع الدين: من استخف بالعالم يكفر وتطلق امرأته بائنًا» ولعل هذا ما قصده العلامة الدمنهورى[١] فى كتابه «سبيل الرشاد إلى نفع العباد» بقوله: «وفى بعض كتب الحنفية أن إهانة العلم أو العالم بأى طريق كان كفر تجرى على المهين أحكام المرتدين».

وظاهر جدًا أنه ليس المراد به إلا العلم الذى جاء فى القرآن وشريعة محمد خير الأنام.

وما أصدق قول ابن عصفور:

مع العلم فاسلك حيثما سلك العلم
وعنه فكاشف كل من عنده فهمُ

ففيه جلاء للقلوب من العمى
وعون على الدين الذى أمره حتمُ

فإنى رأيت الجهل يزرى بأهله
وذو العلم فى الأقوام يرفعه العلمُ

يعد كبير العلم وهو صغيرهم
وينفذ منه فيهم القول والفهمُ

وأى رجاء فى امرئ شاب رأسه
وأفنى سنيه وهو مستعجم فدمُ[٢]

يروح ويغدو الدهر صاحب بطنة
تركب فى أحضانها اللحم والشحمُ

---

(١) تولى مشيخة الأزهر الشريف من عام ١١٨٢هـ إلى ١١٩٠هـ، وكتابه هذا مجموعة من الحكم والأمثال مرتبة على حروف المعجم.

(٢) الفدم: العى الثقيل.

إذا سئل المسكين عن أمر دينه
بدت رمضاء العمى فى وجهه تسمو
وهل أبصرت عيناك أقبح منظر
من أشيب لا علم لديه ولا حكمُ
هى السوأة السوداء فاحذر شقاءها
فأولها خزى وآخرها ذمُّ
فخالط رواة العلم واصحب خيارهم
فصحبتهم زين وخلطتهم غنمُ
ولا تصدن عيناك عنهم فإنهم
نجوم إذا ما غاب نجم بدا نجمُ
ووالله لولا العلم ما اتضح الهدى
ولا لاح من غيب الأمور لنا رسمُ

* * *

الإيمان

الإيمان فى اللغة: هو التصديق.. ومنه قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أى بمصدق، والتصديق، هو اعتقاد السامع صدق المخبر به، فمن صدق الله تعالى فيما أخبر به فى كتابه وصدق رسوله ﷺ فيما أخبر به معتقدًا بالقلب صدقهما فهو مؤمن.

وفى الشرع: التصديق بما علم بالضرورة أنه من دين محمد ﷺ كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء.

فالإيمان فى عرف الشرع ليس هو التصديق مطلقًا بل هو التصديق بأمور مخصوصة، علم بالضرورة أى بلا دليل أنها من دين رسول الله ﷺ وإن كانت متوقفة فى نفسها على النظر والاستدلال كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء فإن كل واحد منها وإن كان نظريًا فى نفسه لكن كونه من دينه عليه الصلاة والسلام معلوم بالضرورة.

فيخالف الإيمان التكذيب، وينافيه التوقف والتردد.. ثم إن هذه الأمور إذا لوحظت إجمالاً يكفى التصديق بها إجمالاً، وإذا لوحظت تفصيلاً يجب تصديقها تفصيلاً فمن لم يصدق بفريضة الصلاة عند السؤال عنها وبحرمة الخمر عند السؤال عنها كان كافرًا..

ولا نطيل بذكر ما قاله بعض الأئمة من أن النطق بالشهادتين وكذا العمل جزءان من الإيمان يضمان إلى التصديق السابق فإن هذا ليس محل ذكر الأقوال فى هذا الشأن وإنما ذكرنا محل إجماع علماء المسلمين وهو التصديق السابق ذكره.

وإذا كان الكفر مقابلاً للإيمان ومضادًا له فقد قسموه إلى أربعة أقسام:

أولاً: كفر إنكار.

ثانيًا: كفر جحود.

ثالثًا: كفر عناد.

رابعًا: كفر نفاق.

فمن لقى الله تعالى بشىء من ذلك لم يغفر له وهو مخلد فى النار أبد الآباد.. أعاذنا الله والمسلمين بمنه وكرمه.

وكفر الإنكار هو أن يكفر بقلبه ولسانه ولا يعتقد الحق ولا يقربه، وكفر الجحود هو أن يعرف الحق بقلبه ولا يقر بلسانه ككفر إبليس ومنه[1] قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ**﴾ [البقرة: ٨٩]. يعنى كفر الجحود.

وكفر العناد هو أن يعرف بقلبه ويقر بلسانه ولا يتدين به ككفر أبى طالب، وكفر النفاق هو أنه يقر بلسانه ولا يعتقد بقلبه.

فأهل جميع المذاهب والملل غير الإسلام كفار داخلون فى أى الأقسام السابقة لا يخرجون عنها.

وليعلم أن الإيمان بالمعنى السابق أصل مستتبع للحسنات كلها وأنها ثمرات لازمة وتابعة له فهو شرط لصحة سائر الحسنات لا يعتبر شىء منها بدونه كما لا يوجد البناء دون أساسه.. قال تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ**﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا**﴾ [النور: ٣٩].

وقال جل شأنه مبينًا مآلهم فى الآخرة: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا**﴾ [الفرقان: ٢٣].

* * *

(١) فى حق اليهود.

التقوى والعبادة

التقوى عند أهل الشرع وعلماء المسلمين هى:

اتباع أنواع الطاعات بأسرها وترك المنكرات والمعاصى بأجمعها..

وهذا التعريف للتقوى إنما هو لتقوى الخواص، وفوقها تقوى خواص الخواص وهى اتقاء ما يشغل عن الله، ودونها تقوى العوام وهى اتقاء الكفر بالإيمان.

ولعله ظاهر مما تقدم أن كلمة التقوى يدور معناها على اتقاء ما يضر ويؤذى المكلف من دخول النار أو الخلود فيها أو بعده عن الله عز وجل.

والعبادة هى:

أثر استعباد الله لعبده أى جعله كالعبد بتكليفه بالأمر والنهى.

ويقال فى اللغة:

التعبد والاستعباد هو تصيير الشخص كالعبد بتكليفه بالأمر والنهى، يقال: عبدنى فلان تعبيدًا، واعتبدنى اعتبادًا، وأعبدنى إعبادًا، وتعبدنى تعبدًا.

والكل بمعنى استعبدنى.

وقال بعض العلماء:

العبادة غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو البارى سبحانه فهى أبلغ من العبودية لأن العبودية إظهار التذلل.

فهل هذه المعانى تتأتى عند هؤلاء الذين يقولون دون تفكر وإمعان ومن غير تدبر واستبصار إن التقوى والعبادة تشمل تجارة التاجر وزراعة الزارع وصناعة الصانع... إلخ. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

وحين قال تعالى مخاطبًا الناس عمومًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]. هل كان سبحانه يقصد أن ازرعوا واتجروا واصنعوا؟

إن هذه الأمور وأسبابها تفرض كفائيًا على الأمة كما بينا ذلك فى أكثر من

موضع أما أن تكون فى مرتبة التقوى التى كلف الله بها كل فرد من المكلفين على اختلاف أنواعهم وأجناسهم فهذا ما لا يعرف لغة ولا شرعًا.

نعم قال أهل الأصول: إن المباح يصير عبادة بالقصد أى إذا قصد به التقوى على العبادة والطاعة كان مثابًا عليه بهذا الاعتبار لا من حيث هو مباح يقصد التلذذ به والتفكه.

* * *

العقيدة الصحيحة أولاً
والاستقامة على نهج القرآن ثانيًا

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

تتمثل العقيدة الصحيحة فى أعظم وأجمع كلمة نزل بها الوحى منذ أن بزغت شمس هذا الوجود من لدن آدم عليه السلام، إلى يومنا هذا، إلى يوم القيامة، أبد الآباد، إلى الخلود الذى لا نهاية له ولا زوال، تلك هى كلمة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

قال العلماء لو أن رجلاً عبد الله تعالى وصدق بالجنة والنار وكل شىء ولم يشهد أن محمدًا رسول الله؛ لم ينتفع بشىء وكان كافرًا. ثم يأتى بعد ذلك دور الاستقامة وهى كما قال عمر رضى الله عنه «أن تستقيم على الأمر والنهى ولا تروغ روغان الثعلب» ومعنى ذلك أن المكلفين من عموم الإنس والجن عليهم أن يكونوا بالنسبة لأوامر القرآن ونواهيه على أكمل وأتم حال، صادقين مخلصين، وما أبدع قوله تعالى: ﴿اسْتَقَامُوا﴾ فإن كلمة ﴿ثُمَّ﴾ لتراخى الرتبة فى الفضيلة عما قبلها من التوحيد فإن الثبات على التوحيد ومصححاته إلى الممات أمر فى علو رتبته لا يرام إلا بتوفيق ذى الجلال والإكرام.

قال بعض العلماء: ذهب عمر رضى الله عنه فى تفسير الاستقامة بمعناها المتقدم إلى الأتم والأفضل، وإلا فيلزم على هذا التأويل أخذًا من مفهوم الكلام ألا تتنزل الملائكة عند الموت على غير المستقيم.

وذهب أبو بكر رضى الله عنه وجماعة معه إلى أن المعنى ثم استقاموا على قولهم ربنا الله فلم يختل توحيدهم، ولا اضطرب إيمانهم خصوصا إذا لوحظ أنه قد جاء فى الحديث الصحيح «ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة».

وبيان ذلك أن العصاة من أمة محمد وغيرها فريقان: فأما من غفر الله تعالى له وترك تعذيبه فلا محالة أنه ممن تتنزل عليهم الملائكة بالبشارة وهو إنما استقام على التوحيد فقط.

وأما من قضى الله تعذيبه مدة ثم يأمر بإدخاله الجنة فلا محالة أنه يلقى جميع ذلك عند موته ويعلمه وليس يصح أن تكون حاله كحالة الكافر اليائس من رحمة الله تعالى، وإذا كان هذا فقد حصلت له بشارة بألا يخاف الخلود ولا يحزن ويدخل فيمن يقال لهم: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ومع هذا كله فلا يختلف فى أن الموحد المستقيم على الطاعة أتم وأكمل بشارة، وهو قصد أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه كما قدمنا.

والأحسن الأعم فى بيان معنى قوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أن يكون هذا التنزل فى ثلاثة مواطن: عند الموت وفى القبر وعند البعث.

ويقول ابن العربى فى أحكامه زيادة على هذا: إنها تتنزل عليهم كل يوم، وآكد الأيام يوم الموت وحين القبر ويوم الفزع الأكبر، قال وفى ذلك آثار وردت. اهـ.

وإذا كان الخوف مما يلحق لتوقع المكروه، والحزن مما يلحق وقوعه من فوات نافع أو حصول ضار، فالمعنى أن الله تعالى كتب لهؤلاء الأمن من كل غم متوقع أو واقع فلن يذوقوه أبدًا، فالمستقيم على طاعة الله تعالى يأمن من العذاب مطلقًا، والمستقيم على التوحيد يأمن الخلود فى النار إن لم يغفر الله له وإلا فهو آمن من العذاب مطلقًا كما مرت الإشارة إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ تلك هى ثالث البشارات التى يبشر بها المؤمن المستقيم على ما تقدم بيانه، وقوله سبحانه: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ معنى ولاية الملائكة فى الدنيا لهؤلاء أنهم يفعلون معهم كل ما يمكن أن يفعله القريب.

قال الخطيب الشربينى فى تفسيره: «نجلب لكم المسرات وندفع عنكم المضرات ونحملكم على جميع الخيرات فنوقظكم من المنام ونحملكم على الصلاة والصيام ونبعدكم عن الآثام، ضد ما تفعله الشياطين مع أوليائهم، وفى الآخرة كذلك حيث تتعادى الأخلاء إلا الأتقياء.

قال بعض أئمة التفسير: «تقول الملائكة: نحن الحفظة الذين كنا معكم فى الدنيا ونحن أولياؤكم فى الآخرة لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة».

﴿**وَلَكُمْ فِيهَا**﴾ أى فى الآخرة قبل دخول الجنة وفى جميع أوقات المحشر ﴿**مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ**﴾ من اللذائذ لأجل ما منعتموه من الشهوات فى الدنيا ﴿**وَلَكُمْ فِيهَا**﴾ فى الآخرة ﴿**مَا تَدَّعُونَ**﴾ تطلبون فهو من الدعاء بمعنى الطلب، وقوله تعالى: ﴿**نُزُلاً**﴾ أى فى هذا كله يكون لكم نزلاً كما يقدم إلى الضيف عند قدومه إلى أن يهيأ له ما يضاف به، وأما ما يعطون فهو مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿**مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ**﴾.

وهذا وقد قال الإمام الفخر: إن معنى قوله: ﴿**نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ**﴾ إشارة إلى أن للملائكة تأثيرات فى الأرواح البشرية بالإلهامات والمكاشفات اليقينية والمناجات الخفية كما أن للشياطين تأثيرات فى الأرواح بإلقاء الوساوس... وبالجملة فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة حاصل من جهات كثيرة معلومة لأرباب المكاشفات، فهم يقولون كما أن تلك الولايات حاصلة فى الدنيا فهى تكون باقية فى الآخرة بأن تلك العلائق الذاتية لازمة غير مائلة إلى الزوال بل تصير بعد الموت أقوى وأبقى، وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة وهى كالشعلة بالنسبة إلى الشمس... وإنما المتعلقات الجسدية والتدبيرات البدنية هى الحائلة بينهم وبين الملائكة فإذا زالت تلك العلائق فقد زال الغطاء واتصل الأثر بالمؤثر والقطرة بالبحر والشعلة بالشمس.

وهذا يلتقى مع ما قاله الخطيب الشربينى مع زيادة وإيضاح وتوسعة.

وقد ورد فى الأثر ما يبين علاقة الملائكة بالمؤمن والكافر عند الموت فقد روى ابن المبارك فى دقائقه بسنده عن النبى ﷺ أنه قال: إذا فنيت أيام الدنيا عن هذا العبد المؤمن بعث الله تعالى إلى نفسه من يتوفاه.

فقال صاحباه اللذان يحفظان عليه عمله: إن هذا كان لنا أخًا وصاحبًا وقد حان يوم عنه فراق فأذنوا لنا ـ أو قال دعونا ـ نثن على أخينا فيقال اثنيا عليه، فيقولان: جزاك الله خيرًا ورضى عنك وغفر لك وأدخلك الجنة فنعم الأخ كنت والصاحب، ما كان أيسر مؤنتك وأحسن معونتك على نفسك، ما كانت خطاياك تمنعنا أن

نصعد إلى ربنا فنسبح بحمده ونقدس له ونسجد له. . . ويقول الذى يتوفى نفسه: اخرج أيها الروح الطيب إلى خير يوم مر عليك، فنعم ما قدمت نفسك، اخرج إلى الروح والريحان وجنات النعيم ورب عليك غير غضبان.

وإذا فنيت أيام الدنيا عن العبد الكافر بعث الله إلى نفسه من يتوفاها فيقول صاحباه اللذان كانا يحفظان عليه عمله: إن هذا قد كان لنا صاحبًا وقد حان منه فراق فأذنوا لنا ودعونا نثن على صاحبنا فيقال: اثنيا، فيقولان: لعنه الله وغضب عليه ولا غفر الله له، وأدخله النار، فبئس الصاحب، ما كان أشد مؤنته وما كان يجنى على نفسه إن كانت خطاياه وذنوبه لتمنعنا أن نصعد إلى ربنا فنسبح له ونقدس له ونسجد له، ويقول الذى يتوفى نفسه: اخرج أيها الروح الخبيث على شر يوم مر عليك فبئس ما قدمت نفسك، اخرج إلى الحميم وتصلية الجحيم ورب عليك غضبان. اهـ.

ولشدة خطر الاستقامة وعظم مكانتها عند الله تعالى أمر الله بها نبيه ﷺ، هو ومن آمن معه فى قوله جل شأنه: ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا** ﴾ [هود: ١١٢]. فمعنى (استقم) أى على دين ربك والعمل والدعاء إليه ﴿**كَمَا أُمِرْتَ**﴾ والأمر فى ذلك للتأكيد فإنه ﷺ كان على الاستقامة ولم يزل عليها فهو كقولك للقائم: قم حتى آتيك أى دم على ما أنت عليه من القيام حتى آتيك. . . وأيضًا فهو توطئة لقوله تعالى: ﴿**وَمَن تَابَ مَعَكَ**﴾ أى فاستقم على دين الله والعمل بطاعته ومن آمن معك.

وأشار الرسول صلوات الله عليه إلى شدة الاستقامة بقوله: «شيبتنى هود وأخواتها» وعن ابن عباس رضى الله عنهما «ما نزلت على النبى ﷺ آية أشد ولا أشق من هذه الآية» والتأويل المشهور فى قوله عليه الصلاة والسلام: «شيبتنى هود وأخواتها» أنه إشارة إلى ما فيها مما حل بالأمم السالفة فكان حذره على هذه الأمة أن يحل بها مثل ذلك.

وعن عثمان بن عبد الله الثقفى قال: قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا غيرك قال: «قل آمنت بالله ثم استقم» وقال الإمام الرازى: إن هذه الآية أصل عظيم فى شأن الشريعة وذلك لأن القرآن لما ورد بالأمر بأعمال

الوضوء مرتبة فى اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ ولما ورد الأمر فى الزكاة بأداء الإبل من الإبل، والبقر من البقر وجب اعتبارها. وهذا القول فى كل ما ورد أمر الله تعالى به.

ولما كانت الاستقامة هى التوسط بين طرفى الإفراط والتفريط، نهى عن الإفراط بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ أى لا تتجاوزوا الحد فيما أمرتم به أو نهيتم عنه بالزيادة إفراطًا، فإن الله سبحانه إنما أمركم ونهاكم لتهذيب أنفسكم لا لحاجته إلى ذلك ولن تستطيعوا أن تقدروا الله حق قدره، والدين متين ولن يشاده أحد إلا غلبه، ورد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة».

وما دام الحديث مرتبطًا بالآية الكريمة فلا بأس أن نذكر معنى كلماته فقوله ﷺ: «إن الدين يسر» ضد العسر أراد به التسهيل فى الدين وترك التشدد فإن هذا الدين مع يسره وسهولته قوى فلن يغالب، وقوله: «وسددوا» أى اقصدوا السداد فى الأمور وهو الصواب «وقاربوا» أى اطلبوا المقاربة وهى القصد الذى لا غلو فيه، والغدوة الرواح بكرة، أول النهار، والروحة الرجوع عشاء والمراد اعملوا بالنهار واعملوا بالليل وقوله: «واستعينوا بشىء من الدلجة» إشارة إلى تقليل مدة العمل بالليل.

ولما نهى الله تعالى عن الإفراط وهو الزيادة تصريحًا أفهمنا هذا النهى عن الإفراط النهى عن التفريط تلويحًا من باب أولى فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ نهيًا عن الإفراط والتفريط «وهو النقص عن المأمور» الأول بالتصريح والثانى بالتلويح.. ثم علل ذلك مؤكدًا تنزيلاً لمن يفرط منزلة المنكر فقال: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، أى عالم بأعمالكم كلها لا يخفى عليه شىء منها فيجازيكم عليها.

ثم ذكر سبحانه بعد ذلك بعضًا مما تتحقق به الاستقامة نهيًا وأمرًا، فذكر من المنهيات منهيًا عنه واحدًا ومن المأمورات اثنين فقط، فقال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣]، ومعنى ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾ لا تميلو أدنى ميل فلا

ترضوا بظلم الظالم ولا تمكنوه من الظلم ولا تتهاونوا فى منعه من الظلم ولا تتصلوا به من قريب أو بعيد على أية حال أو صفة فالنهى متناول للانحطاط فى هواهم والانقطاع إليهم ومصاحبتهم وزيارتهم والرضا بأعمالهم والتشبه بهم والتزيى بزيهم ومد العين إلى زهرتهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم.. وتأمل قوله تعالى: ﴿**وَلا تَرْكَنُوا**﴾، فإن الركون هو الميل اليسير، وحكى أن الموفق العباسى صلى خلف الإمام فقرأ هذه الآية فغشى عليه فلما أفاق قيل له فى ذلك، فقال: هذا فيمن ركن إلى من ظلم فكيف بالظالم؟

ولما خالط الزهرى السلاطين كتب له أخ فى الدين: عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن فقد أصبحت بحال ينبغى لمن عرفك أن يدعو الله لك ويرحمك، أصبحت شيخًا كبيرًا وقد أثقلتك نعم الله تعالى بما فهمك من كتابه وعلمك من سنة نبيه، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء، قال سبحانه وتعالى: ﴿**لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ**﴾ [آل عمران: ١٨٧].

واعلم أن أيسر ما ارتكبت وأخف ما احتملت أنك آنست وحشة الظالم وسهلت سبيل الغى بدنوك ممن لم يؤد حقًا ولم يترك باطلاً، حين أدنوك اتخذوك قطبًا تدور عليك رحى باطلهم. وجسرًا يعبرون عليك إلى ملاذهم، وسلمًا يصعدون فيه إلى ضلالهم، يدخلون بك الشك على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك فى جنب ما خربوا عليك وما أكثر ما أخذوا عليك من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾ [مريم: ٥٩]. فإنك تعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل، فداو دينك لقد دخله السقم، وهيئ زادك فقد حضر السفر البعيد وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء.. والسلام.

وقال ﷺ: «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه».

وفى هذه الآية وعيد لمن ركن إلى الظلمة بأن تمسه النار فكيف يكون حال الظالم؟ وقد جاء فى الحكم: «من يظلم يخرب بيته» وهو صريح قوله جل شأنه: ﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا**﴾ [النمل: ٥٢]، وقد سئل ابن المبارك رضى الله عنه

عمن يخيط ثياب الظلمة هل يشاركهم فى الظلم؟ فقال إن من يبيع الإبرة لمن يخيط ثياب الظلمة شريك لهم فى الظلم فكيف بمن يخيط؟.

وأما الاثنان المأمور بهما عقب آية الاستقامة فهما قوله تعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ...**﴾ الآية [هود: ١١٤]، ثم قوله بعد ذلك: ﴿**وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [هود: ١١٤]، ولنتكلم عليهما فنقول: قوله تعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ**﴾ يدل على أن أعظم العبادات بعد الإيمان بالله تعالى هى الصلاة، وقوله تعالى: ﴿**طَرَفَيِ النَّهَارِ**﴾ الغداة والعشى: أى الصبح والظهر والعصر، وقوله: ﴿**وَزُلَفًا**﴾ جمع زلفة أى: طائفة: ﴿**مِّنَ اللَّيْلِ**﴾ أى المغرب والعشاء، ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ**﴾ كالصلوات الخمس ﴿**يُذْهِبْنَ**﴾ أى يكفرن ﴿**السَّيِّئَاتِ**﴾ أى الذنوب الصغائر، لما رواه مسلم إنه ﷺ قال «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر». وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ما تقولون؟ هل يبقى من درنه شىء؟ قالوا: لا يا رسول الله لا يبقى من درنه شىء فقال: ذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا».

وعن الحسن «إن الحسنات قول العبد: سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» وسبب نزول هذه الآية ما روى عن عبد الله بن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له فنزلت فقال رجل: يا رسول الله ألهذا خاصة؟ فقال: بل للناس عامة».

وقال العلماء: الصغائر من الذنوب تكفرها الأعمال الصالحة مثل الصلاة والصدقة والذكر ونحو ذلك من أعمال البر وأما الكبائر فلا يكفرها إلا التوبة النصوح ولها ثلاثة شروط: الأول: الإقلاع عن الذنب بالكلية، والثانى: الندم على فعله، والثالث: العزم التام على ألا يعود لمثله أبدًا، فإذا حصلت هذه الشروط صحت التوبة وكانت مقبولة إن شاء الله.

وقوله سبحانه: ﴿**ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾ أى عظة للمتقين والإشارة فيه إلى ما تقدم ذكره من قوله تعالى: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ...**﴾ إلى هنا، وقيل: هو إشارة إلى القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ﴾ خطاب للرسول ﷺ أى واصبر يا محمد على أذى قومك أو الصلاة وهو كقوله سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى أجر أعمالهم، وعدل عن الضمير ليكون كالبرهان على أن المقصود من إقامة الصلاة أن تؤدى على أحسن وجوهها، ومن الصبر أن يكون ابتغاء وجه الله وإنه لا يعتد بشىء منها دون الإخلاص.

هذا. وتأكيدًا للاستقامة بمعناه العام الشامل نورد ما روى من أن رجلاً أتى على ابن أبى طالب وقال له: ما الإيمان وكيف الإيمان؟ فقال الإمام: الإيمان على أربع دعائم: على الصبر واليقين والعدل والجهاد.

والصبر على أربع شعب: على الشوق والخوف والزهادة والترقب. فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ومن خاف من النار رجع عن المحرمات ومن زهد فى الدنيا تهاون بالمصائب، ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات.

واليقين على أربع شعب: تبصرة الفطنة وتأويل الحكمة وموعظة العبرة وسنة الأولين فمن تبصر الفطنة تأول الحكمة (فهم المقصود منها) ومن تأول الحكمة عرف العبرة ومن عرف العبرة عرف سنة الأولين ومن عرف سنة الأولين فكأنما كان فى الأولين.

والعدل على أربع شعب: على غامض الفهم وروضة العلم وعلم الحكم (القضاء بين الناس) وشرعة الحلم، فمن فهم جمع العلم، ومن علم لم يضل فى الحكم، ومن علم عرف شرائع الحلم ومن حلم لم يفرط أمره (لم يكن أمره فى خسارة وعاش فى الناس محمودًا).

والجهاد على أربع شعب على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصدق فى المواطن وشنآن الفاسقين فمن أمر بالمعروف شد ظهره ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافقين ومن صدق فى المواطن قضى الذى عليه ومن شنأ الفاسقين غضبًا لله تعالى غضب الله تعالى له فقام الرجل وقبل رأس الإمام.

* * *

الفوز الأكبر فى طاعة الله ورسوله

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، طاعة الله تعالى تتمثل فى القيام بما أمر الله فى قرآنه وبما بينه رسول الله ﷺ فى هديه وسنته.. على كل حال من الأحوال، أعنى فى حال اليسر والعسر والمنشط والمكره، إذ لكل حال من هذه الحالات رسم خاص فى الشريعة يجب اعتباره وملاحظته وعلى المكلف أن يقوم به خير قيام، وأن ينفذه بكل دقة وأمانة، إن أراد أن يحظى بشرف الدنيا وكرامة الآخرة.

فلم يخلق الله الدنيا لنجمعها ذهبًا وفضة ولا لنفخر بها جاهًا وسلطانًا ولا لنعتز بها قصورًا شاهقة وحدائق ذات بهجة مثمرة.. وإنما كانت الدنيا وكانت هذه الحياة كما بينها الله جل جلاله بقوله عز اسمه: ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧].

وما دام الإنسان عبدًا لخالقه ومملوكًا لسيده فهو مأمور بشرع الله وقرآنه أن يسير فى دائرة لا يتعداها، ومحيط لا يتجاوزه لا فى السراء ولا فى الضراء.

قال العلماء: إن أحسن العمل يمكن تلخيصه فى خمسة أصول:

أولاً: أخذ المال بحق:

أعنى لا سرقة ولا اغتصاب، ولا ظلم ولا اعتساف ولا رشوة ولا اختطاف إلى غير ذلك من المفاسد الكسبية التى لا تستقيم معها الأمور ولا تنهض بأمة تريد الحياة الكاملة الصحيحة، ولا شك أن هذا الأصل متى كان سليمًا - كما بينه الله - كان القوة الدافعة إلى كل خير، والركن الركين الذى يقوم به صرح السعادة ويعتمد عليه.

ثانيًا: إنفاق فى حق:

ولعل أشرف ما ينفق فيه المال هو النفقة على العيال فى غير إسراف ولا مخيلة، ولا بخل ولا تقتير وفى الحديث الصحيح (إذا انفق الرجل على أهله يحتسبها فهى

له صدقه) أو كما قال.

وفى القرآن الكريم فى صفة عباد الرحمن مدحًا لهم وثناء عليهم: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴾ [الفرقان: ٦٧].

ثم يأتى بعد ذلك حق ذى القربى والمساكين وابن السبيل على النحو المتقدم والصفة المذكورة.. إلى غير ذلك مما تدعو إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة من غير ضرر ولا ضرار ولا إفراط ولا تفريط.

ثالثًا: أداء الفرائض التى افترضها الله على عباده وكلفهم بها:

ليسعدوا بالنعيم فى دار البقاء ويحظوا برضاه فى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

وهذه الفرائض ـ كما هو معلوم ـ متعددة متنوعة فالصلاة ركن الدين الأول بعد الشهادتين وكذلك الزكاة ركن الدين الثانى ثم يأتى الصوم وهو فى جملته ترفع بالإنسان عن المعنى المادى الحيوانى إلى السمو الروحى الملائكى. ويأتى الحج إلى بيت الله الحرام.

رابعًا: اجتناب المحارم التى حرم الله تعالى على عباده أن يفعلوها ونهاهم أن يقتربوا منها:

وهى إما أن تتعلق بالنفس كالقتل ونحوه. وإما أن تتعلق بالعرض كالزنا ومقدماته ويلتحق بهذا النوع الغيبة والنميمة وما فى معناها، وإما أن تتعلق بالمال من سرقة وغصب إلى غير ذلك، سواء كانت هذه المحرمات ظاهرة كما تقدم أو باطنة كالأمراض القلبية من حقد وحسد وكبر وعجب فكل ذلك منهى عنه ومحرم أن يأتى منه شىء.

خامسًا: الإكثار من المندوبات:

والمندوب هو الأمر الذى طلبه الشارع طلبًا غير جازم، وما أكثر أنواعه وأوسع أبوابه.

ففى باب الصلاة مثلاً نرى لها سننًا مؤكدة وغير مؤكدة: وقد نص العلماء على أن من ترك المؤكد منها أسبوعًا واحدًا ردت شهادته، ونصوا كذلك على أنها

لا تترك سفرًا ولا حضرًا[١] وقد ورد فى الحديث عن النبى ﷺ: «من داوم على أربع قبل الظهر وأربع بعده حرمه الله على النار» وقال عليه الصلاة والسلام: «رحم الله امرءًا صلى أربعًا قبل العصر» قال العلماء: فى معناه إما أن يكون هذا خبرًا أو إنشاء (دعاء) فإن كان خبرًا فخبره ﷺ صادق لا يتطرق إليه أدنى شك.

وإن كان دعاء فيا فوز من دعا له النبى ﷺ إذ دعاؤه مستجاب إن شاء الله تعالى.

وفى باب الصيام نرى صيام ست من شوال وثلاثة من كل شهر وقد صح بكل منها الحديث وكذا صيام عاشوراء وعرفة ورد به الحديث الصحيح... إلى غير ذلك مما لا نطيل فيه الكلام إذ هو مبسوط فى محله.

وفى باب الزكاة والحج لكل منهما مندوبات ومستحبات فالحجة الثانية وما بعدها مرغوب فيها وقد جاء عن النبى صلوات الله عليه أن صدقة التطوع تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار.

هذا إلى ما جاء فى آداب الأكل والشرب فقد صح عن الرسول ﷺ أنه قال: «سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك»، وأنه ﷺ كان يشرب فى ثلاثة أنفاس يبتدئ فى كل منها باسم الله ويختتم بحمده. كذلك أمر بالاستغفار وملازمته، المأمور به فى قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

كذلك الصلاة على خير المرسلين المنصوص عليها فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وهذا إلى آداب دخول المنزل والخروج منه، وآداب النوم واليقظة ودخول المسجد والاعتكاف فيه... وغير ذلك مما هو ثابت ومقرر فى محله.

وهل بعد ذلك نعلم السر فى قوله ﷺ فى الحديث القدسى عن الله عز وجل

---

(١) بعض العلماء يرى أن رخصة قصر الصلاة فى السفر تتنافى مع أداء سنن الصلاة، ويقول ابن عمر رضى الله عنهما ـ كما فى صحيح مسلم ـ: لو كنت مسبحًا (متنفلاً) لأتممت صلاتى.

«وما زال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها. . الحديث».

إن النوافل لابد لها أن تكون بعد أداء الفرائض كما جاء فى الحديث «لا تقبل نافلة حتى تؤدى فريضة» ولذلك رتبت عليها محبة الله عز وجل كما سبق فى الحديث فعلى العاقل أن يعى ذلك ويعمل به حتى يحظى بخيرى الأولى والآخرة.

بقى من الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ [النور: ٥٢] ولنتكلم عليهما فنقول: الخشية هى الخوف البالغ من تعظيم وإجلال للمخشى من حيث إن الخاشى يعلم ما عليه المخشى من عزة وجبروت وحينئذ فلا يعصى له أمرًا، كما يؤخذ من قوله جل جلاله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. فمن ازداد من الله علمًا زاد منه خشية وخوفًا ومن كان علمه به أقل كانت خشيته أقل، قال رسول الله ﷺ: «إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية»، وقال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا».

قال مسروق: «كفى بالمرء علمًا أن يخشى الله تعالى وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه» وقال رجل للشعبى: افتنى أيها العالم، فقال له: «العالم من خشى الله تعالى».

ولعله قد ظهر بوضوح من هو العالم الذى هذه صفته وتلك مميزاته وأنه ليس صانع الصاروخ ولا بانى الهرم ولا كاشف الميكروب ولا الواقف على سر التفاعلات الكيماوية. . فهؤلاء أجدر أن يكونوا صناعًا مهرة لا علماء، وأن يكون عملهم صنعة وفنًا لا علمًا له هذه القداسة وتلك المنزلة التى للعلم وأهله. . فإن وفقوا إلى الإيمان بالله تعالى وامتثال شرعه كانوا من المفلحين وإلا فهم من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

ولذلك يقول ابن عباد فى شرح حكم ابن عطاء السكندرى «واعلم أن العلم النافع المتفق عليه فيما سلف وخلف إنما هو العلم الذى يؤدى بصاحبه إلى الخوف والخشية وملازمة التواضع والتخلق بأخلاق الإيمان إلى ما يتبع ذلك من بغض الدنيا والزهد فيها وإيثار الآخرة عليها، ولزوم الأدب بين يدى الله إلى غير ذلك

من الصفات العلية والمناحى السنية.

وقال بعض الفضلاء: والعلوم النافعة ما كانت للهمم رافعة وللأهواء قامعة وللشكوك مانعة.

وأما قوله تعالى فى الآية الكريمة ﴿ **وَيَتَّقْهِ** ﴾ فالمراد بالتقوى هنا معنى يغاير معنى الطاعة والخشية المذكورين فى الآية الكريمة. وننقل عبارة الغزالى فى هذا المعنى، قال فى منهاج العابدين «اعلم أن التقوى فى القرآن تطلق على ثلاثة أشياء:

أحدها: بمعنى الخشية والهيبة قال تعالى: ﴿ **وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ** ﴾ [البقرة: ٤١]، وقال سبحانه.. ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ** ﴾ [البقرة: ٢٨١].

والثانى: بمعنى الطاعة والعبادة قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ** ﴾، قال ابن عباس أطيعوا الله حق طاعته.. وقال مجاهد هو أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر.

والثالث: بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب وهذه هى الحقيقة فى التقوى دون الأولين ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [النور: ٥٢] ذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى فعلم أن حقيقة التقوى معنى سوى الطاعة والخشية، وهى تنزيه القلب عن الذنوب. اهـ.

وأما قوله جل شأنه: ﴿ **فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ فمعناه أنهم فازوا بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ويحكى عن بعض الملوك أنه طلب آية كافية فتليت عليه هذه الآية.

وبعد: هل آن لنا أن نتدبر القرآن ونفهم ما جاء فيه ونعمل على مقتضاه ثم ندعو الدنيا كلها إلى الأخذ بتعاليمه والسير على منهاجه حتى نأخذ بيدها إلى بر السلامة.

وفى الحق إنه لن تخرج الدنيا من هذه الظلمات المتكاثفة إلا إذا اهتدت بنوره الوضاء، ولن تستبدل من انحلالها وتفكك روابطها قوة شامخة، إلا إذا استمسكت بعروته الوثقى، ولن تجد من حفاظ على كيانها إلا إذا استمسكت بهذا الحبل المتين ودخلت فى سياجه المنيع.

﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴾ [الإسراء: ٩] صدق الله العظم.

المعارف الدنيوية ليست علمًا

قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧].

العلم الذى دعا إليه القرآن وجاء به محمد ﷺ هو معرفة الله عز وجل بما يليق بجلاله وما يتفق وعظمة صفاته. ومعرفة المآل بما فيه من نعيم دائم لمن آمن وعمل صالحًا، وعذاب خالد لمن كفر بالله وأعرض عن شرعه، ثم تطهير النفس مما يدنسها من الرذائل المهلكة والخبائث القاتلة.

ولا يغنى عن هذه الأصول أبدًا فى جلب نفع أو دفع ضر ـ معارف دنيوية وعلوم تنظم هذه الحياة وتديرها مهما كان مصدرها ومهما كان منشأها ومهما كان واضعها قوى العقل وعظيم القوة ولطيف الاحتيال.

هذا وقد قال المفسرون إن قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا﴾ بدل من قوله سبحانه: ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ قال الخطيب الشربينى فى تفسيره: «وفى هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسده ليعلم أنه لا فرق بين عدم العلم الذى هو الجهل وبين وجود العلم الذى لا يجاوز الدنيا.

ثم قال فى قوله تعالى: ﴿ظَاهِرًا﴾ ما يفيد أن للدنيا ظاهرًا وباطنًا، فظاهرها ما يعرفه الجهال من أمر معايشهم، كيف يكسبون ويتجرون، ومتى يغرسون ويحصدون، وكيف يبنون ويعرشون.

قال الحسن البصرى: إن أحدهم لينقد الدرهم، بطرف ظفره فيذكر وزنه وهو لا يخطئ، ولا يحسن يصلى، وأمثال هذا لهم كثير.. وهو إن كان عند أهل الدنيا عظيمًا فهو عند الله حقير فلذلك حقرهم لأنهم ما زادوا فيه على أن ساووا البهائم فى إدراكها ما ينفعها فتستجلبه بضروب من الحيل، وما يضرها فتدفعه بأنواع من الخداع..

وأما علم باطنها وهو أنها مجاز إلى الآخرة يتزود منها بالطاعة فهو ممدوح.

وفى تنكير ﴿ظَاهِرًا﴾ إشارة إلى أنهم لا يعلمون إلا ظاهرًا واحدًا من جملة ظواهرها.

﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ﴾ أى التى هى المقصود بالذات وما خلقت الدنيا إلا للوصول بها إلى الآخرة ليظهر الحكم بالقسط وجميع صفات العز والجلال والإكرام.

﴿هُمْ غَافِلُونَ﴾ أى فى غاية الاستغراق والإضراب عنها بحيث لا تخطر فى خواطرهم. اهـ بتصرف.

هذا هو معنى الآية وتفسيرها على ما قاله ذلك الإمام العلامة، وهو تصوير صحيح للواقع المشاهد وتعبير صادق عن الحقيقة الملموسة، وما أروع قول الحسن البصرى فيما تقدم:

«إن أحدهم لينقد الدرهم بطرف يده فيذكر وزنه وهو لا يخطئ وهو لا يحسن يصلى» إنه يوبخ فى شدة هذا الذى يجيد أمر الدنيا ويتقن معرفة أسباب الحياة فيها ثم هو لا يحسن الصلاة.

وتحت كلمة «لا يحسن الصلاة» كل أنواع الذم والتقريع فهو لا يعرف كيف يتوضأ ولا كيف يغتسل ولا يدرى ما هو فرض الصلاة من نفلها.. وهكذا حاله وشأنه فى باقى العبادات وسائر أنواع المعاملات الشرعية، وإذا كان الحسن البصرى فى زمانه حزن على ترك التفقه فى الدين بسبب الانهماك فى أمر الدنيا وتحصيلها فكيف الحال إذا كان ترك التفقه فى الدين سببه الاشتغال بالمحرمات والمفاسد.

وما أجمل قول عياض فى الشفا كما نقله عنه صاحب الجواهر الحسان عند تفسير هذه الآية قال: قال أبو العباس المبرد رحمه الله «قسم كسرى أيامه فقال يصلح يوم الريح للنوم ويوم الغيم للصيد ويوم المطر للشرب واللهو ويوم الشمس للحوائج.. قال ابن خالويه: ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ لكن نبينا محمدًا ﷺ جزأها ثلاثة أجزاء جزء لله تعالى وجزء لأهله وجزء لنفسه، ثم جزأ جزء نفسه بينه وبين الناس فكان يستعين بالخاصة على العامة ويقول أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغى فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع أمَّنه الله تعالى يوم الفزع الأكبر.

وكيف تكون الدنيا نافعة أو دافعة عذاب الله إذا كان أهلها معرضين عن شرعه

ودينه والله تعالى يقول بعد هذه الآية بقليل: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

تأمل قوله سبحانه: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ فإن الخطاب مع العرب المكذبين للنبى ﷺ يقول لهم إن الأمم قبلكم كانوا أشد منكم قوة فى العقول والأبدان وأنهم أثاروا الأرض وقلبوها للزرع والغرس والمعادن وغير ذلك وأنهم عمروها بالبناء الشامخ وإقامة القصور.. ولكن ذلك كله لن يغنى عن الحق شيئًا، قال تعالى حكاية عن قوم هود موضحًا لهم ومقرعًا: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨، ١٢٩]. والريع هو المرتفع من الأرض.

وقوله أيضًا جل جلاله بعد أن حكى هلاك قوم فرعون بالغرق لتكذيبهم موسى عليه السلام: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٩]، والجنات والزروع كانت على أتم حال من الازدهار والنضارة، والمقام الكريم هو مقام السلطنة والتمكين مصحوبًا ذلك بطيب العيش.. كل ذلك لم يغن عنهم شيئًا حين كذبوا بموسى وما جاء به وكانت نهايتهم أن خرجوا من ذلك كله إلى قاع البحر.. ثم ألم يقل الله تعالى فى سورة الفجر بعد القسم والتأكيد: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ١٤] وهذا غاية الوضوح ونهاية فى البيان على أن أساس الأمر وملاكه هو شرع الله ودينه وأن من حفظه سعد ومن ضيعه ضل.

وعلى هذا فالذى يجب أن يقال إن هناك فرقًا كبيرًا وبونًا شاسعًا بين العلم والصناعات والحرف وأن للعلم منزلة عالية ومكانة رفيعة لا يشركه فيها غيره من

هذه الحرف والصناعات وإن كانت لابد منها حتمًا طريقًا للكسب المشروع وضرورة من ضرورات الأمة.

والمعنى فى ذلك كما نص عليه الفقهاء أن الصنعة وما إليها فرض كفاية يعنى لا بد من وجود طبقة من الأمة تقوم بأمر الصناعات وما تحتاج إليه الدولة وإلا أثمت كلها فالاكتفاء الذاتى يجب أن يكون مميزًا لدولة الإسلام وألا تأخذ من غيرها إلا عن طريق المبادلة وما تقتضيه المصلحة دون أن يكون لأى دولة أخرى سلطان.

نعم لا بد من وجود تلك الصناعات على ألاّ يكون ذلك مبعدًا عن الشرع ولا حاملاً على التكذيب بشىء منه إطلاقًا وإلا كانت ضررا وبيلا، فإن الله الذى يقول: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ [الأنفال: ٦٠]، هو الذى يقول أيضًا: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [التغابن: ١٦].

ولا يمكن بعد هذا أن يقال: «رجل الدين ورجل العلم» يقصدون بالعلم أمثال البحث فى طبقات الأرض، فإن الدين هو العلم الصحيح والحق الصراح الذى به سعادة الناس فى الأولى والآخرة.. وإنما يقال: «رجل الشريعة العالم بها والواقف على أسرارها والداعى إلى الله فى يقين وصدق، ورجل الصنعة العارف بحقيقتها أيّاً كانت الصنعة وأيّاً كان نوعها».

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

* * *

النظر والتفكير مفتاح العبادة

قال الله تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

طلبت الآية الكريمة فى شدة وتوبيخ بالغين إلى المشركين والمعرضين عن دعوة سيدنا محمد ﷺ أن ينظروا فى ثلاثة أمور تحيط بهم ولا تفارقهم طرفة عين هى:

أولاً: ملكوت السموات والأرض.

ثانيًا: ما خلق الله من الأجناس والأنواع التى لا يمكن حصرها.

ثالثًا: اقتراب أجلهم وفوات فرصة وجودهم.

تفصيل الأمر الأول: فإنهم لو نظروا فى ملكوت السموات والأرض نظر اعتبار واستدلال لدلهم ذلك على كمال قدرة الصانع وعظيم شأنه وأنه من المحال أن يكون هذا الصنيع وذلك الإبداع عن طريق الصدفة دون خالق مبدع حكيم.

قال بعض العارفين ناصحًا تلميذه: «املأ عينك من زينة هذه الكواكب وأجلها فى جملة هذه العجائب متفكرًا فى قدرة مقدرها، متدبرًا حكمة مدبرها قبل أن يسافر بك القدر ويحال بينك وبين النظر».

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: أتانى النبى ﷺ فى ليلتى حتى مس جلدى جلده ثم قال ذرينى أتعبد لربى عز وجل، فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام فصلى فبكى حتى بلّ لحيته ثم سجد حتى بلّ الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: ويحك يا بلال وما يمنعنى من أن أبكى وقد أنزل الله فى هذه الليلة: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...** ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها.

وكان الرجل من بنى إسرائيل إذا عبد الله ثلاثين سنة تظله سحابة فعبد الله فتى منهم فلم تظله، فقالت له أمه: لعل وقع منك فرطة، فقال: لم يقع منى شىء، قالت: لعلك نظرت مرة إلى السماء فلم تعتبر، قال: لعل ذلك».

وعن على رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه كان إذا قام من الليل يتسوك ثم ينظر إلى السماء ويقول: ﴿**إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...**﴾ الآية.

وقال سيدى عبد الرحمن الثعالبى عند تفسيره هذه الآية: «قال الفخر: واعلم أن المقصود من هذا الكتاب الكريم جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق، والاستغراق فى معرفة الحق فلما طال الكلام فى تقرير الأحكام والجواب عن شبهات المبطلين عاد إلى إثارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد والكبرياء والجلال وذكر الأدعية فتختم بهذه الآيات ﴿**إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...**﴾ بنحو ما فى سورة البقرة.

ثم قال سيدى عبد الرحمن الثعالبى عند قوله تعالى: ﴿**وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [آل عمران: ١٩١] قال الغزالى: ونهاية ثمرة الدين فى الدنيا تحصيل معرفة الله والإنس بذكر الله تعالى، والإنس يحصل بدوام الذكر، والمعرفة تحصل بدوام الفكر، ومر النبى ﷺ على قوم يتفكرون فى الله فقال: تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق فإنكم لا تقدرون قدره.

وقال بعض العلماء: المتفكر فى ذات الله كالناظر فى عين الشمس لأنه ليس كمثله شىء وإنما التفكر وانبساط الذهن فى المخلوقات وفى أحوال الآخرة.

وقال القشيرى: «التفكر نعت كل طالب، وثمرته الوصول بشرط العلم ثم فكر الزاهدين فى فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها فيزدادون بالفكر فى هذا؛ وفكر العابدين فى جميع الثواب فيزدادون نشاطًا عليه ورغبة، وفكر العارفين فى الآلاء والنعماء فيزدادون محبة للحق سبحانه. اهـ.

الأمر الثانى: ويتمثل فى قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأنعام: ٩٩].

وفى مثل قوله سبحانه: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ**﴾ [يس: ٧١ - ٧٣].

وفى مثل قوله جل جلاله: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠].

الأمر الثالث: اقتراب الأجل يعنى أنه على العاقل أن يخوف نفسه بانقضاء الأجل سريعًا لأنه لا يدرى هل بقى من عمره زمن آخر أم لا؟ ولقد قال بعض الصالحين: «ينبغى لك يا أخى إذا خرج منك نفس أن تخوف نفسك بقولك لها لا أدرى هل يتبعه نفس آخر أو هو آخر الأنفاس».

والتفكر فى قرب الأجل يقلل الأمل ويعين على الاجتهاد فى العمل، وطول الأمل يقسى القلب ويضعف العمل. ولا ينبغى للعاقل أن يغتر بما هو فيه من علم أو صلاح أو قوة لأن الذى منح ما ذكر قادر على سلبه وإنزال ضده. فالمطلوب من العاقل الاستعداد للموت وملابسة الأعمال الصالحة رجاء أن يموت على السعادة وهى الموت على الإيمان. ومن لا فكرة عنده قد يأتيه الموت وهو مطيع لهواه فيندم ولا ساعة مندم.

وعلى العاقل أن يفكر فيما بعد الموت من سؤال الملكين وعذاب القبر والحشر والنشر والحساب والصراط، إلى غير تلك الأهوال: ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾.

وإذا كان النظر والتفكر مفتاح العبادة كما قدمنا وكانت الآيات الكريمة التى سقناها صريحة كل الصراحة فى ذلك وأنها داعية الخلق إلى الاتصال بالحق سبحانه وتعالى ومعرفته حق المعرفة والإيمان باليوم الآخر والحياة الأبدية جنة كانت أو نارًا.

أقول: إذا كان هذا كله فمن البعد عن الغاية والميل والانحراف عن القصد أن تستعمل تلك النصوص وتحمل على السعى لهذه الحياة الدنيا فيقال مثلاً فى قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر: ٢٧]: إنه علم طبقات الأرض. حتى قالوا فى قوله سبحانه بعد ذلك: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] إن المراد بالعلماء: الباحثون فى طبقات الأرض، مع أن هذا الباحث قد لا يخطر بباله أبدًا خشية الله ومعرفته وعلى ذلك نظائر كثيرة

من القرآن الكريم فهموها على غير معناها وأخذوها على غير محملها.

هذا، وإنا لنجد فى الآيات الداعية إلى التفكر تصريحًا بالغاية التى من أجلها كان، وذكرًا للنتيجة التى من أجلها طلب. فالله جل جلاله يقول: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

فالآية تصرح بأنهم وصلوا إلى إثبات البعث كنتيجة لتفكرهم وأنه سبحانه منزه أن يكون خلقه هذا عبثًا لا لحكمة ولا لغاية، ومثل ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ [الانبياء: ١٦].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨].

وإنا لنسوق آية هى ـ فيما نرى ـ أصرح آية فى بيان الغاية المرجوة من التفكر والفائدة المنتظرة مع بيان معناها وهى قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

فقوله تعالى ﴿فِي أَنفُسِهِم﴾ يحتمل أن يكون ظرفًا.. كأنه قيل أولم يحدثوا الفكر فى أنفسهم أى فى قلوبهم الفارغة من التفكير. والتفكر لا يكون إلا فى القلوب ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقولك: «اعتقد فى قلبك وأضمر فى نفسك» وعلى هذا يكون. المتفكر فيه ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ﴾.

والمعنى: يتفكرون فى السموات والأرض على ما هما عليه من النظام المحكم والقانون المتقن ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المعانى والأشياء التى لا يكمل النفع إلا بها ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أى إلا خلقًا متلبسًا بالحق أى الأمر الثابت الذى يطابق الواقع فإذا ذكر البعث مثلاً وجد أن الواقع من تصوير النطف ونفخ الروح وتمييز الصالح للتصوير من الفاسد فى هذا يطابق دعوى البعث ويدل عليه، وإذا لوحظ أمر النبات بعد أن كان هشيمًا قد نزل عليه الماء فاهتز وربا وجد مطابقًا لأمر البعث ودالاً عليه، كذلك إذا ذكرت القدرة كان اختلاف الليل والنهار وسير الكواكب وإجراء الأنهار

كان كل ذلك مطابقًا لكل ما يخطر بالبال من صفات الله جل جلاله.

ولما كان عندهم أن هذا الوجود حياة وموت لا إلى نفاد قال تعالى: ﴿وَأَجَلٍ﴾ لا بد أن ينتهى إليه ﴿مُّسَمًّى﴾ أى شاء الله تعالى فى علمه الأزلى لذلك أن يفنى عند انتهائه وبعده البعث. ولما كانوا لا يفكرون فى أنهم على كفر أكد قوله تعالى ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ﴾ مع وضوح ذلك ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾. أى لا يؤمن بالبعث بعد الموت.

ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿فِي أَنفُسِهِم﴾ هو متعلق التفكير أى يتفكروا فى أحوالهم فيعلموا أن الذى ساوى بينهم فى الإيجاد من العدم وطورهم فى أطوار الصور، وفاوت بينهم فى القدر، وباين أحوالهم فى الطول والقصر، وسلط بعضهم على بعض بأنواع الضرر. ومات أكثرهم قبل أن يأخذ حقه ممن ظلمه لا بد فى حكمته البالغة أن يجمعهم على الحق فى يوم لا ريب فيه فيأخذ كل واحد حقه وينال كل إنسان جزاءه دون ظلم أو حيف، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وعلى هذا التأويل يكون قوله سبحانه: ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ نتيجة لتفكرهم فى أنفسهم وغاية له، فالآية بعد هذا البيان إنما سيقت لبيان وإثبات أصلين مهمين وحقيقتين عظيمتين هما: «إثبات المبدأ والمعاد» على ما تقدم توضيحه وتفصيله.

فالقرآن لم يكن داعيًا إلى البحث عن طبقات الأرض ولا إلى تحليل العناصر الكيماوية ولا إلى معرفة مقدار سير النجوم والكواكب، حيث إن مظاهر الكون كافية وفوق أنها كافية فى إثبات المقصود وبيان الحقيقة.. على أننا نقول إن من اهتدى إلى شىء من أسرار الكون وانتفع به فى خير الوجوه وأفاد الناس بها فى مصالحهم المعيشية فالقرآن لا ينكر ذلك ولا يعارضه ما دام هذا الكشف بعيدًا عن جحود حقيقة من الحقائق القرآنية، والانحراف عن أصل من أصول هذا الدين القيم.

* * *

قال تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]

نعم فى كتاب الله تعالى لأكبر غنية لكل طالب حق فى أى ناحية من النواحى، ففيه العقيدة الحقة، وفيه التشريع الكامل الوافى، وفيه الأدب الرفيع العالى فعلى الناس أن يستريحوا فى تحصيل هذه المطالب حيث أراحهم الله ولا يأخذوها إلا من الكتاب العزيز الذى ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

فقد رأينا تخبط الفلاسفة وتضارب آرائهم قديمًا وحديثًا عن كلامهم فى الألوهية وما يتصل بها حتى رأينا أحدهم وهو أرسطو يجعل الإله لا صلة له بالحياة، كما وجدناهم لم يصلوا بتشريعاتهم فى تنظيم المجامع إلى ما يحسم الداء ويخفف من غلوائه حتى إنهم يبيحون ابتزاز الأموال بأبخس الطرق وأبشع الأساليب. كما أنهم يقرون الفاحشة ويدعون إلى حمايتها. . وكذلك كانوا فى أخلاقهم غير موفقين حتى إنهم يرون أن بعض الناس خلق لا ليكون إنسانًا بل ليكون مسخرًا للخدمة دائمًا ولابد له من أن يرسف فى قيود الذل والهوان.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥] الآيات. . ولنشرح ذلك مستعينين بالله تعالى. . النور فى كلام العرب الأضواء المدركة للبصر ويستعمل مجازًا فيما يصح من المعانى واتضح فيقال: كلام له نور، ومنه ﴿كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج:٨] ومن المعلوم قطعًا أن الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فمن الواضح أنه ليس من الأضواء المدركة وإذًا فلا بد من التأويل ويرى ابن عباس رضى الله عنهما أن المعنى أن الله تعالى هادى أهل السموات والأرض، فهم بنوره إلى الحق يهتدون وبهدايته من حيرة الضلال ينجون، وهداية الله تعالى إلى خلقه لن تكون إلا

بالقرآن الكريم وما بينه رسول الله ﷺ فى أحاديثه الصحيحة.

ثم يمثل الله تعالى هذا النور الإلهى وذلك الهدى الربانى بصفة عجيبة فى غاية الإضاءة والاستنارة وذلك منه جل جلاله حث قوى وترغيب بالغ فى الانتفاع بذلك النور حتى ينجو المنتفع به من عذاب أبدى وشقاء سرمدى، ويحظى بسعادة أبدية وعز دائم خالد لا يزول ولا يفنى، فيقول جل شأنه ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ الآية قوله ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ أى كصفة مشكاة فيها مصباح. والمشكاة هى الكوة فى الجدار غير النافذة، فيها القنديل ونحوه والمصباح هو الفتيل بناره ويقال له السراج أيضًا، والقنديل لهذا السراج هو زجاجة فى غاية ما يكون من بريق الدر ولمعانه وهو ما يوضحه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ والكوكب الدرى هو أحد الكواكب السبعة المعروفة والمشتهرة بضوئها اللامع وبريقها الساطع حتى لكأنها تشبه الدر فى اللمعان والبريق، وإنما لم يقع التشبيه بالشمس والقمر لما يلحقهما من الكسوف والخسوف على خلاف هذه الكواكب فإن شيئًا من ذلك لا يلحقه البتة فضوؤها لا يختفى فى حين من الأحايين ونورها لا يغيب فى زمن من الأزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. فكذلك القرآن فى ضيائه ونوره لا يخبو له ضوء ولا ينطفئ له نور.. ثم يقول الله تبارك وتعالى بعد ذلك فى صفة المصباح ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ يعنى أن فتيلة المصباح رويت بزيت هذه الشجرة المتكاثر نفعها. وفى هذا الزيت منافع كثيرة فهو يسرج به ويدهن به، وهو إدام، وهو أصفى الأدهان وأضوأها.

وقوله تعالى ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أى ليست شرقية وحدها لا تصيبها الشمس إذا غربت ولا غربية فلا تصيبها الشمس إذا طلعت بل هى مصاحبة الشمس طوال النهار وتصيبها الشمس عند طلوعها وغروبها فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الأمرين فيكون زيتها أضوأ وهكذا يقال فلان ليس أسود ولا أبيض أى ليس أسود خالصًا ولا أبيض خالصًا بل اجتمع فيه كل واحد منهما.. وهذا الرمان ليس حلوًا ولا حامضًا أى اجتمع فيه الحلاوة والحموضة.

وقيل معناه أنها معتدلة ليست فى شرق يصيبها الحر ولا فى غرب يضرها

البرد. وقيل ليست هذه الشجرة من أشجار الدنيا لأنها لو كانت فى الدنيا لكانت شرقية أو غربية.. وإنما هو مثل ضربه الله لنوره.

وقوله سبحانه: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ مبالغة فى صفة صفائه وحسنه، وقوله ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أى نور المصباح على نور الزجاجة فهذا المعنى الذى فى الممثل به قد تم نوره وكمل ضياؤه.

وإذا كانت الحقيقة المنزلة لا يدرك العقل البشرى مداها إذ هو محدود له بداية ونهاية، وهى أزلية ليست لها بداية ولا نهاية، وخالدة ومحال أن يدرك المحدود اللا محدود.. نقول إذا كان هذا كله فإن هذا مثل ضربه الله ليقرب للإدراك البشرى حقيقة النور الإلهى حين يعجز عن تتبع مداه وآفاقه المترامية وراء ذلك الإدراك القاصر المحدود.

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ النور هو هداية القرآن كما تقدم وقوله تعالى: ﴿مَن يَشَاءُ﴾ معناه أن الأمور كلها مرتبطة بإرادته تعالى متعلقة بمشيئته فإن الأسباب بدون مشيئته لاغية وقيل: معناه أن الله تعالى يوفق لإصابة الحق من نظر وتدبر بعين عقله ولم يذهب عن الجادة الواصلة إليه يمينًا وشمالاً، ومن لم يتدبر فهو كالأعمى سواء عليه جنح الليل الدامس وصحوة النهار الشامس.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ﴾ يبين ﴿الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ تقريبًا للأفهام ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ معقولاً كان أو محسوسًا، ظاهرًا كان أو خفيًا. وفيه وعيد لمن لم يتدبرها ولم يكترث بها.

ثم إن الناس كانوا أمام هذا الهدى القرآنى والنور الإلهى فريقين: فريق آمن به واعتقده صدقًا ويقينًا وعمل بمقتضاه وخاف الله تعالى واليوم الآخر فجزاه الله أحسن الجزاء، ويشير إلى هذا الفريق ويوضحه قوله سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨].

ويتبين الفريق الثانى ويظهر بوضوح تام فى قوله جل جلاله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩، ٤٠] ولنتكلم عن هذين القسمين فنقول والله المستعان:

القسم الأول:

﴿**فى بُيُوتٍ**﴾ هى المساجد المخصصة لعبادة الله تعالى التى من عادتها أن تنور بهذا النوع من المصابيح فيكون قوله: ﴿**فى بُيُوتٍ**﴾ متعلقًا بما قبله أى كمشكاة فى بعض مساجد الله كأنه قيل: مثل نوره كما ترى فى المسجد نور المشكاة التى من صفتها كيت وكيت.. وقوله: ﴿**أَذِنَ اللَّهُ**﴾ بمعنى أمر وقضى ﴿**تُرْفَعَ**﴾ معناه تبنى كقوله جل شأنه: ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ**﴾ [البقرة:١٢٧] وقال البعض معناه تعظم ويرفع شأنها.

وقوله تعالى: ﴿**وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ**﴾ عام فيما يتضمن ذكره حتى المذاكرة فى أفعاله والمباحثة فى أحكامه وقال بعض الأئمة: يتلى فيها كتابه، وقوله: ﴿**يُسَبِّحُ**﴾ أى يصلى ﴿**لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ**﴾ أى بالغداة والعشى، قال أهل التفسير: أراد به الصلوات المفروضة التى تؤدى بالغداة صلاة الفجر والتى تؤدى بالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاء لأن اسم الأصيل يقع على هذا الوقت. وقيل: أراد به الصبح والعصر.. قال ﷺ: «من صلى البردين دخل الجنة» أراد الصبح والعصر وقال ابن عباس: «التسبيح بالغدو، صلاة الضحى، وروى «من مشى إلى صلاة مكتوبة وهو متطهر فأجره كأجر الحاج المحرم ومن مشى إلى تسبيحة الضحى فأجره كأجر المعتمر، وصلاة على إثر صلاة لا لغو بينهما كتاب فى عليين».

قوله سبحانه: ﴿**رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ**﴾ التجارة هنا مراد بها المعنى الحقيقى وهو التقليب فى المال لغرض الربح وهذا يشمل البيع والشراء ويكون ذكر البيع بعد ذلك من باب المبالغة للتعظيم، والتخصيص بعد التعميم، ويصح أن يراد بالتجارة خصوصًا الشراء لمقابلتها بالبيع إطلاقًا لاسم الجنس على النوع.

هذا وقد قرئ لفظ ﴿**يُسَبِّحُ**﴾ بالبناء للفاعل والبناء للمفعول، فعلى قراءة البناء للفاعل يكون ﴿**رِجَالٌ**﴾ هو الفاعل وعلى قراءة البناء للمفعول يكون نائب الفاعل لفظ ﴿**لَهُ**﴾ ورجال فاعل فعل مقدر، وجواب سؤال مقدر كأنه قيل من يسبحه؟ فقيل: يسبحه رجال.

وقد حذفت الهاء من قوله تعالى ﴿**وَإِقَامِ الصَّلاةِ**﴾ تخفيفًا إذ الأصل (إقامة) ومعنى إقامة الصلاة أداؤها فى أوقاتها لأن من أخر الصلاة عن وقتها لا يكون من

مقيميها وإنما ذكر ﴿وَإِقَامِ الصَّلاةِ﴾ مع أن المراد ذكر الصلوات الخمس لأنه تعالى أراد بإقامة الصلاة حفظ المواقيت.

﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ يعنى إذا حضر وقت أداء الزكاة لم يحبسوها أى يخرجون ما يجب إخراجه من المال للمستحقين، ومع ما هم عليه، يخافون يومًا هو يوم القيامة ﴿تَتَقَلَّبُ﴾ تضطرب ﴿فِيهِ الْقُلُوبُ﴾ بين النجاة والهلاك. ﴿وَالأَبْصَارُ﴾ بين ناحيتين اليمين والشمال، قال بعض العلماء: تتقلب فيه القلوب بين الطمع والنجاة والخوف من الهلاك وتتقلب الأبصار فى أية ناحية يؤخذ بهم ذات اليمين وذات الشمال ومن أى جهة يؤتون كتبهم.

وقوله جل شأنه: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أى فعلوا ذلك ليجزيهم ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أى ثواب أحسن ما عملوا والأحسن بمعنى الحسن ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ ما لم يستحقوه بأعمالهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تقرير للزيادة وتنبيه إلى كمال القدرة ونفاذ المشيئة وسعة الإحسان وكمال الجود فكأنه سبحانه لما وصفهم بالجد والاجتهاد فى الطاعة ومع ذلك يكونون فى نهاية الخوف فالله تعالى يعطيهم الثواب العظيم على طاعتهم ويزيدهم الفضل الذى لاحد له فى مقابل خوفهم.

هذا هو حال القسم الأول من المؤمنين الذين نور الله قلوبهم.

القسم الثانى:

وهو الذى كفر بهذا الهدى القرآنى ولم يؤمن به.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ أى فحالهم على ضد حال المؤمنين فإن أعمالهم التى يحسبونها صالحة نافعة عند الله تعالى يجدونها لاغية مخيبة فى العاقبة ﴿كَسَرَابٍ﴾ وهو ما يرى فى الفلاة وقت الضحى الأكبر شبيها بالماء الجارى وهو ليس بماء ولكن الذى ينظر إليه من بعيد يظنه ماء جاريًا وقيل هو الشعاع الذى يرى نصف النهار فى شدة الحر فى البرارى، الذى يخيل للناظر أنه الماء الجارى فإذا قرب منه انخدع ولم ير شيئًا.

وقوله: ﴿بِقِيعَةٍ﴾ جمع قاع وهى أرض سهلة مطمئنة انفجرت عنها الجبال والآكام وقيل القيعة يعنى القاع وهو الأرض المستوية المنبسطة وفيها يكون السراب.

﴿يَحْسَبُهُ﴾ يظنه ﴿الظَّمْآنُ﴾ العطشان الشديد العطش ـ من ضعف العقل ـ ﴿مَاءً﴾ ولا يزال سائرًا ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ﴾ أى مقدرًا أنه ماء، وقيل: جاء إلى موضع السراب ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ كما حسبه.

ووجه الشبه أن الذى جاء به الكافر إن كان من أفعال البر فهو لا يستحق عليه ثوابًا مع أنه يعتقد أن له ثوابًا عليه.

فإذا وافى القيامة ولم يجد الثواب بل وجد العقاب الشديد عظمت حسرته وتناهى غمه فيشبه حال الظمآن الذى اشتدت حاجته إلى الماء فإذا شاهد السراب تعلق به قلبه فإذا جاء لم يجده شيئًا، فكذلك حال الكافر حسب أن عمله نافع فإذا احتاج إلى عمله لم يجده شيئًا.

﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ﴾ أى فوجد عقاب الله تعالى الذى توعده به فالضمير فى ﴿عِندَهُ﴾ يعود على العمل ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ أى جزاءه ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لأنه تعالى عالم لجميع المعلومات فلا يشغله محاسبة واحد عن آخر.

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ عطف على ﴿كَسَرَابٍ﴾ على حذف مضاف واحد تقديره، أو كذى ظلمات ودل على هذا المضاف قوله تعالى: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ فالضمير يعود إلى المضاف المحذوف.

أو على حذف مضافين والتقدير «أو كأعمال ذى ظلمات» وتقدير المضاف (ذى) ليصح عود الضمير إليه فى قوله تعالى: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ وتقدير المضاف (أعمال) ليصح تشبيه أعمال الكفار بأعمال صاحب الظلمة إذ لا معنى لتشبيه العمل بصاحب الظلمة.

وكلمة ﴿أَوْ﴾ للتخيير فإن أعمالهم لكونها لاغية لا نفع فيها ﴿كَسَرَابٍ﴾ ولكونها خالية عن نور الحق كالظلمات المتراكمة من لجج البحر والأمواج والسحاب، أو هى للتنويع فإن أعمالهم إن كانت حسنة فكالسراب وإن كانت قبيحة فكالظلمات.

ومعنى التنويع أن أعمالهم نوعان كل نوع تحته أفراد فالأعمال الحسنة نوع يضم أفرادًا من أعمال الخير، والأعمال القبيحة نوع آخر يضم أفرادًا من أعمال الشر، ويصح أن تكون ﴿أَوْ﴾ للتقسيم باعتبار وقتين فإنها كالظلمات فى الدنيا

وكالسراب فى الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿**فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ**﴾ صفة الظلمات فيتعلق بمحذوف واللجى منسوب إلى اللج وهو معظم البحر وقيل منسوب إلى اللجة بالتاء وهى أيضًا معظمه فاللجى هو العميق الكثير الماء.. وقوله تعالى: ﴿**يَغْشَاهُ**﴾ أى يغطى هذا البحر ويعلوه ﴿**مَوْجٌ**﴾ كائن ﴿**مِّن فَوْقِهِ**﴾ أى الموج الثانى المركوم، وقوله سبحانه: ﴿**سَحَابٌ**﴾ أى غيم غطى النجوم وحجب أنوارها، صفة أخرى لبحر.

وقوله جل شأنه ﴿**ظُلُمَاتٌ**﴾ أى من البحر اللجى والسحاب، وظلمات خبر مبتدأ مضمر تقديره هذه ظلمات أو تلك ظلمات ويجوز أن تكون ظلمات مبتدأ والجملة من قوله سبحانه ﴿**بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ**﴾ خبره والذى سوغ الابتداء بالنكرة على هذا هو أنها موصوفة تقديره أى ظلمات كثيرة متكافئة..

﴿**إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ**﴾ أى الكائن فى هذا البحر بدلالة المعنى وإن لم يجر له ذكر، واليد هى أقرب ما يرى إليه فى هذه الظلمات ﴿**لَمْ يَكَدْ**﴾ الكائن فيه ﴿**يَرَاهَا**﴾ أى لم يقرب من رؤيتها فضلاً عن أن يراها، ويحتمل أن يكون المعنى رآها بعسر وشدة، ووجه ذلك أن (كاد) إذا صحبها حرف النفى وجب الفعل الذى بعدها وإذا لم يصحبها انتفى الفعل.

وقد اختلف أهل التفسير فى كيفية هذا التشبيه على أقوال:

أحدها: قال الحسن: إن الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمة ظلمة البحر وظلمة الأمواج وظلمة السحاب وكذا الكافر له ثلاث ظلمات ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل.

ثانيها: قال ابن عباس: شبه قلبه وسمعه وبصره بهذه الظلمات الثلاث.

ثالثها: إن الكافر لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى ويعتقد أنه يدرى فهذه المراتب الثلاث تشبه تلك الظلمات الثلاث.

رابعها: قلب مظلم فى صدر مظلم فى جسد مظلم.

خامسها: أن هذه الظلمات متراكمة فكذا الكافر لشدة إصراره على كفره قد تراكمت عليه الضلالات حتى لو ذكر عنده أظهر الدلائل لم يفهمه.

وقوله تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾ يعنى ومن لم يجعل

الله له الإسلام دينًا، وإيمانًا بالقرآن، هاديًا ومرشدًا فلا دين له ولا هادى، فإن كانت أعمال الكفرة الذين كفروا بالقرآن، وشريعة محمد ﷺ على ما وصفه القرآن وبينه فيما سبق من أنها لاغية متلاشية لا نفع فيها إطلاقًا وأنها ظلمات بعضها فوق بعض.. فهل يتأتى بعد ذلك أن يقال لأى كافر كان، يهودى أو مسيحى أو مادى إنه عالم أو علامة، كما نسمع ترداد هذا على ألسنة المسلمين.. فكم قالوا العالم الإنجليزى والعالم الألمانى والعالم الروسى، اللهم إن هذا زور وبهتان لا يصح أن ينطق به مسلم آمن بالقرآن وعرف ما فيه.

* * *

المبحث الثالث

الدين والحياة

- جدة معانى القرآن.
- القرآن ومدى استجابته لمطالب الحياة الصحيحة.
- الجانب الأخلاقى والاجتماعى فى القرآن.
- الذرية الطيبة والولد الصالح فى رسم القرآن وبيانه.
- قوامة الرجل على المرأة والعلاج الحاسم للنزاع بينهما.
- النفس المطمئنة.

جدة معانى القرآن

تكون الجدة بما فى المعنى من تربية صادقة للنفوس وغذاء كامل للعقول وذلك بما يحمل من أصول صحيحة ترتكز عليها الحياة الفاضلة وبما فى طيه من دقائق تحفظ على الإنسان إنسانيته وتصون له كرامته ويصل بها إلى أعلى درجات العزة فى دنياه وأخراه.

وإذا كان منزل القرآن هو الذى يعلم السر وأخفى، والذى له كل الجلال والإكرام فإن معانيه وعلومه غاية فى الجدة بحيث لا يعتريها البلى أبدًا ولا ينالها الضعف إطلاقًا بل هو فى ذلك فوق ما يدركه العقل ويستحسنه الذوق بمراحل ومراحل، وإنا نوضح ذلك ونبينه بما يأتى:

أولاً: ما يتصل بجلال الله وتوحيده:

قال تعالى: ﴿**فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ**﴾ [قريش: ٣، ٤].

أمر الله عباده أن يعبدوه (يمتثلوا أمره ويجتنبوا نهيه فى إجلال وتعظيم).

وجعل أساس هذه العبادة ركنين عظيمين فى حياة الناس جميعًا.. لهما أبلغ الأثر فى وجودهم والحفاظ على مصالحهم، وهما الإطعام من جوع والأمن من خوف، فإذا فقد هذان الركنان أو أحدهما فقد بطلت الحياة أو نقصت نقصًا ينذر بالزوال.

ولذلك ينذر الله بسلبهما وانتزاعهما من الناس عند كفرانهم بأنعم الله قال تعالى: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ [النحل: ١١٢].

ونرى القرآن الكريم كذلك يذكر أهل الحرم فى تبكيت وتقريع بهاتين النعتين حينما قالوا للنبى ﷺ فيما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿**وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٧٥].

ويوضح النبى ﷺ هذا المعنى ويبينه فى الحديث الذى رواه الترمذى «من أصبح آمنًا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت إليه الدنيا بحذافيرها».

فهل ينكر ذو مسكة من عقل عظم هاتين النعمتين فى حياة الدنيا كلها؟ وهل يعترى هذا المعنى ضعف أو يناله شىء من البلى؟ اللهم إلا عند من عمى عن الحق، فحق المنعم بهذا أن يعرف فلا يجحد، ويطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر حسب الطاقة البشرية وإذا قلنا يجب أن يعرف فلا يجحد فإن معرفته لن تكون إلا عن طريق الوحى القرآنى وبصفاته التى وصف نفسه بها.

فالله واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله، أزلى أبدى، حى قيوم ليس كمثله شىء وهو السميع البصير، ذو الجلال والإكرام.

والتوحيد بهذا المعنى لم يختلف فيه وحى سماوى ولا شرع إلهى بل الأديان كلها من لدن آدم فمن بعده من الأنبياء والمرسلين، من عُلموا ومن لم يعلموا، إلى ظهور سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وسيد الخلائق أجمعين كلها مجمعة على التوحيد الخالص الذى لا يشوبه ريب ولا يدخله شك.

وقد أيد العقل السليم الرشيد والمنطق الصحيح السديد تلك الحقيقة تأييدًا كاملاً ولم يشذ عن ذلك إلا من اعتلت نفوسهم ومرضت قلوبهم فكانوا من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، فهم كافرون بما أطبقت عليه الأديان وخارجون عما دعت إليه الفطرة وقضى به المنطق الصادق والعلم الصحيح وسيلقون فى الحياة الآخرة إن تابوا على ذلك وماتوا عليه جزاء كفرهم نارًا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وبما أن القرآن هو مجمع الكتب والشرائع السابقة قد جعله الله مهيمنًا عليها وحاكمًا، فقوله الفصل فى كل قضية إلهية وفى كل حكم سماوى، فإنا نسوق منه أدلة التوحيد الناصعة والرد على الضالين المخالفين.

قال تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾** [الأنبياء ٢٥]، وهذا نص غاية فى الصراحة والظهور.

وقد نزلت سورة للتوحيد بأكملها، قال عز من قائل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ وآيات التوحيد فى القرآن كثيرة، واضحة الدلالة غير خافية المعنى. فمنها قوله سبحانه: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٢]. ثم ذكر الدليل على أنه واحد رحمن رحيم بقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] فإذا تأمل المتأمل فى هذه الآية التى ذكرت دليلاً على أنه واحد رحمن رحيم ظهر له بحق صدق المدعى، وتبين له فى وضوح قيام أحقيته ووجوب اعتقاده.. ففى كل واحد من هذه الأشياء الثمانية التى ذكرتها الآية الكريمة ما يكفى لإثبات عظمة الخالق وسعة فضله ورحمته وعميم كرمه وجوده، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

ومنها قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فذكر فيها أنه واحد حى قيوم، ومعنى كونه حيًا أنه لا يزول ولا يموت، ومعنى كونه قيومًا أنه قائم بتدبير أمر السموات والأرض وما فيها ومن فيها مما لا يأتى عليه العد ولا يعلم حقيقته إلا من خلقه ـ سبحانه وتعالى ـ.

ثم ذكر فى الآية ما يناسب ويؤكد أنه حى قيوم فقال تعالى: ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾. إذ لو لحقه شىء من ذلك لما كان قائمًا بالتدبير وأمر المصالح ولفسدت هذه الكائنات واختل نظام وجودها، وهذا ما يشير إليه القرآن فى آية أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

ثم ذكر فى الآية أيضًا: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ وهذا من مستلزمات أنه حى قيوم.. كما ذكر أنه ليس لأحد كائنًا من كان أن يتدخل فى أمر تدبيره

وتنظيم شأنه فقال: ﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾.

ثم بين أن علمه محيط بكل شىء وأن ليس لأحد أن يعلم من علمه إلا إذا أراد الله له ذلك ثم بين أن له مخلوقات عجيبة عظيمة مثل الكرسى وأن سعته كسعة السموات والأرض، وذكر أن حفظ السموات والأرض لا يثقل ولا يشق عليه، وختم الآية بوصفه بالعلو والعظمة يعنى أنه أعلى وأعظم مما ذكر فسبحان من لا يعلم قدره غيره ولا يبلغ الواصفون صفته.

ومن الآيات الدالة على التوحيد ـ أيضًا ـ قوله فى سورة آل عمران: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

ومعنى شهادة الله أنه بين لخلقه بالدلائل وإنزال الآيات. ومعنى شهادة الملائكة أنهم أقروا بذلك، وشهادة أولو العلم أنهم آمنوا بذلك وبينوه للناس بالدلائل النقلية والعقلية.

﴿قَائِماً﴾ حال من ﴿هُوَ﴾ والعامل فيه معنى الجملة أى تفرد

فلنعلم أن قوله هنا: ﴿قَائِماً بِالْقِسْطِ﴾ بعد ذكر ما أفاد التوحيد الصريح يضاهى قوله تعالى فى الآية الأولى بعد ذكر التوحيد (الرحمن الرحيم) ويؤخذ من ذلك أن الله جلت قدرته مع توحده فى الخلق وتفرده بالتدبير منزه عن الحيف والجور، مقدس عن الظلم والسفه.. فعلى المؤمن أن يكون هذا المعنى فى قلبه ونفسه مؤمنًا موقنًا أن كل ما يأتى به الله فهو عن رحمة ذاتية له سبحانه لا تفارقه ولا تزايله، وعن عدل ذاتى له كذلك لا يمكن أن ينفك أو يزول وإن كان فيه ما لا تحبه النفس وتهواه، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

وصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام إذ يقول: «لا يذوق العبد حلاوة الإيمان حتى يؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومره»، وحين يقول: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ـ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ـ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا، فعجبًا لأمر المؤمن!».

ومن هنا قال أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه مخاطبًا الحضرة الإلهية: «الويل لمن لا يعرفك بل الويل كل الويل لمن أقر بوحدانيتك ثم لم يؤمن بأحكامك».

وعلى هذا المعنى قول القائل:

حكم الإرادة بالمقدور منحتم الخير فى الشر لكن ظاهر آلم

هذه بعض آيات التوحيد وما يتصل بها وغير ذلك فى القرآن كثير يعلم بالتتبع والإستقراء.

ثم إن هناك من الآيات ما يدل على التوحيد بالفحوى والأسلوب مثل قوله سبحانه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

فأفادت الجملة الأولى أن الله هو الضار وأن أحدًا كائنًا من كان لا يستطيع كشف الضر وأنه وحده قادر على كشفه وإزالته، وأفادت الجملة الثانية أن الله هو النافع وأنه لا يستطيع كائن من كان أن يرد نفعه إذا أراد النفع.

ومثل قوله تعالى حكاية عن هود عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

أفادت الآية الكريمة أن التوكل بمعنى التبرى من الحول والقوة لن يكون إلا إلى الله، وأنه سبحانه قاهر لكل دابة وأنها لا تخرج عن قدرته وإرادته، ومع كل هذا التفرد وتلك القدرة فأمره وشأنه على صراط مستقيم، لا حيف ولا ميل ولا ظلم ولا جور، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

وكذلك قوله جل شأنه: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، تقرر الآية تفرده سبحانه بالإعطاء والمنع وهو فى إعطائه ومنعه عزيز لا يغالب، حكيم لا يعارض فله جل شأنه الحكمة المطلقة والحجة البالغة ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وهذه الوجهة الإسلامية فى العقيدة الإلهية إنما كانت تخليصًا للعقيدة الحقة من أوهام الفلاسفة وتخيلاتهم الكاذبة، وتخليصًا لها كذلك من انحرافات أهل الكتاب فى تثليثهم ووثنيتهم التى تسربت إليهم من وثنية الهنود وما شابهها فكان موقف الإسلام موقف المصحح والمتمم ولم يكن موقف الناقل أو المستعير، وللكاتب المعروف «عباس العقاد» كلام فى هذا الباب نحب أن ننقله وها هو ذا[1]:

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه.

فالله رب العالمين ملك يوم الدين لم يكن نسخة من صورة الله فى عقيدة من العقائد الكتابية بل هو الأصل الذى يثوب إليه من ينحرف عن العقيدة فى الإله كأكمل ما كانت عليه وكأكمل ما ينبغى أن يكون، ومن ثم كانت هذه العقيدة الإلهية فى الإسلام مصححة متممة لكل عقيدة سبقتها فى مذاهب الديانات أو مذاهب الفلاسفة ومباحث الربوبية.

ودين يصحح العقائد الإلهية ويتممها فيما سبقه من ديانات الأمم وحضاراتها ومذاهب فلاسفتها ـ تراه من أين أتى ومن أى رسول كان مبعثه؟.

من صحراء العرب.. ومن الرسول الأمى بين الرسل والمبعوثين بالكتب.. إن لم يكن ذلك وحيًا من الله فكيف يكون الوحى من الله؟.

ليكن كيف كان فى أخلاد المؤمنين بالوحى الإلهى حيث كان، فما يهتدى رجل «أمى» فى أكناف الصحراء إلى إيمان بالله أكمل من كل إيمان تقدم إلا أن يكون ذلك وحيًا من الله وإنه لحجر على البصائر والعقول أن تنكر الوحى على هذه المعجزة العليا لأنه لا يصدق عليها فى صورة من صور الحدس أو الخيال. اهـ باختصار.

وسيبقى هذا التصحيح الإسلامى لعقيدة الألوهية جديدًا لا يبلى، قويًا لا يضعف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ثانيًا: ما يتصل من القرآن بالناحية الخلقية وبيان ما فيها من جدة:

نسوق فى هذا مثلاً واحدًا يحتذى ونقدم نموذجًا يقتدى ذلك هو بعض من قصة يوسف التى ذكر الله عنها أنها أحسن القصص، والتى بين العلماء كيف كانت أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التى تصلح للدين والدنيا، وما فيها من سير الملوك والمماليك والغلمان ومكر النساء والصبر على الإيذاء وحسن التجاوز عن الأعداء وغير ذلك.

وسوف نذكر منها ما يتصل بالصبر ومغالبة الهوى قال الله تعالى فى هذا المعنى: ﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى**

بُرْهَانَ رَبِّه كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فأول ما يطالع القارئ لهذه الآيات، وأول ما يجده منها هو ما يحس به من الروعة التى تستولى على كل أحاسيسه وما يلمحه بين ثناياها من الدقة البالغة والتنسيق الكامل، ونسوق عبارة الأستاذ/ محمد مصطفى عطا[1]:

«إن القصة تبلغ الذروة والتصوير يجاوز حد الروعة، ففى القصة حياة وفيها روح وحركة تلمسها جميعًا فى مثل قوله تعالى: ﴿**وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِه...**﴾ إلخ الآيات المتقدمة صورة نفسية لماحة يعجز أى فن عن أدائها ولو كان فن الرسم أو التصوير أو الشعر وهى فى الوقت ذاته صورة المثل الأعلى للنفس الإنسانية فى صراعها مع الفتوة الصارخة والشباب المستعلن، ونداء الجنس الصاخب.. إنها النفس الكبيرة التى جاهدت الجهاد الأكبر فقمعت كل هذه الشهوات الخسيسة، إنها النفس المؤمنة التى أراد الشيطان ضلالها وزيفها فلما تحسست إيمانها وعمق روحها داسته بأقدامها وبقيت النفس الفاضلة.

وازن بين هذه الصورة التى رسمها القرآن فأضفى عليها الحياة وأشاع فيها الحركة.. وازن بينها وبين هذه الصورة التى حملها إلينا العهد القديم.

الصورة الموجزة التى لم يلعب فيها الخيال بريشته بل قدمها إلى العقل جثة هامدة ففى التوراة (الإصحاح التاسع والثلاثين من سفر التكوين)، «ثم حدث نحو هذا الوقت أنه (يوسف) دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك فى البيت فأمسكته بثوبه قائلة: اضطجع معى فترك ثوبه فى يدها وهرب وخرج إلى الخارج».

هذا إلى ذلكم النظم الذى تبدى فيه القرآن ليرتل ترتيلاً فلا يتبرم به المردد إذا تلاه مرات ومرات بل يجد فى ترديده عذوبة وفى الاستماع إليه راحة. اهـ.

فهل ترى جدة بالغة الذروة وحسنًا يفوق كل حسن فى غير هذا الإبداع والتصوير اللهم كلا وألف مرة كلا.

---

(١) الدعوة التحررية الكبرى.

كذلك ترسم لنا سورة النور الخلق الذى يجب أن تتحلى به المرأة وتحلى به أولادها فى سنيهم الأولى التى تتولى فيها رعايتهم وهى أخلاق كثيرة عديدة ذكرت مطولة فى آيات من هذه السورة ونحن نذكر أصولها فقط طلبًا للإيجاز والاختصار وهى:

العفة فى كثير من صورها: عفة الفرج وعفة اللسان وعفة النظر.

النهى عن التبرج وإبداء الزينة لأجنبى.

الاستئذان: استئذان الخادم على مخدوميه، والصغير على والديه واستئذان الكبير، واستئذان الزائر.

البيوت التى لا يستأذن فى دخولها، التعريف بالأقربين.

احترام أولى الأمر الدينيين والدنيويين ـ المثابرة على مساعدة الفقراء ولو حدثت منهم إساءة ـ توجه النظر إلى المشاهدات الدالة على وجود الله وقدرته وعلمه كالنور والسموات والأرض والكواكب والسحاب والمطر والماء والنبات والإنسان والحيوان والطير والزواحف.

وتعظيم بيوت الله وإجلال الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ولا يلهيهم شىء عن ذكر الله وطاعته.

هذا ما يجب أن تتحلى به المرأة كما يؤخذ من صريح السورة لمن قرأها وتدبرها وتحلى به أولادها فى الفترة الزمنية الذين هم فيها ألصق من ظلها لها فينشأون نشأة حميدة يسعدون بها فى دينهم ودنياهم.

ولعلك بعد هذا تلمح السر فى قوله ﷺ ـ كما ورد فى بعض الآثار ـ: «علموا نساءكم سورة النور».

فإذا خرج الأولاد من دور طفولتهم وقاربوا أن يكونوا رجالاً مكلفين لازموا آباءهم ملازمة أكثر من ملازمة الأمهات كان على الآباء أن يتحلوا بالأخلاق الحميدة ويسلكوا المسالك الرشيدة فتقتدى بهم الأولاد فى ذلك وتنتهج نهجهم وبذلك تسعد الأسرة وتصل إلى أوج الرفعة والكمال.

وهنا نرى سورة المائدة ترسم لنا هذا المنهج وتوضحه أيما إيضاح ونحن نذكره بإيجاز وتلخيص كسابقه فنقول:

الوفاء بالعهود والمواثيق، والتعاون على البر والتقوى، تحريم الإسلام كل ما له صلة بالوثنية أو الجاهلية، بكمال الإسلام كملت كل وسائل السعادة فى الأولى والآخرة ولذلك كان الدين النهائى الذى ارتضاه الله تعالى لعباده إلى يوم القيامة، العدل فى أسمى صوره، وصف أهل الكتاب والكفار والمنافقين من حيث عقائدهم وأخلاقهم وأفعالهم، وانحرافهم عن الحق فى جميعها وما ينبغى نحوهم، الفساد فى الأرض والسرقة والاعتداء على النفس وعقاب هذه الأمور، النبى ﷺ نور والقرآن الكريم هداية ومصدق لجميع الكتب السماوية وشاهد لها. تحريم الخمر والميسر وحكمته. . أسرار الحج. وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ومن هنا ومن أجل ذلك كان قوله ﷺ: «علموا رجالكم سورة المائدة» وهذا جزء من الحديث السابق وتمامه (علموا رجالكم سورة المائدة وعلموا نساءكم سورة النور) ألا فليتعلم العالم بأسره ولتسمع الدنيا كلها هذه التعاليم الحية الرشيدة ولتترسم هذا النهج الصادق القويم ولترتكز على هذه الأصول القوية المتينة التى لا يعتريها ضعف ولا يشوبها انحلال أبد الآبدين ودهر الداهرين.

ثالثا: عبادات القرآن وبيان الجدة فيها:

يرجع أمر العبادة فى توقيتها وتحديدها وكيفياتها إلى الله وحده فليس لإنسان كائنًا من كان أن يتدخل فيها بأدنى شيء فهى مظهر خالص للعبودية ودليل واضح على الخضوع التام لله رب العالمين، فهى تكليفات إلهية قد تكون واجبة وقد تكون مندوبة ليس للعبد إلا أن ينفذها امتثالاً للأمر الإلهى وسعيًا لنيل الثواب الموعود به عليها وهى بهذا تدل على تعظيم البارى وإجلال أمره والإيمان بأنه حكيم فيما أمر، عليم بالحكمة التامة فيما كلف.

وفى الوقت ذاته تعطى العبد اطمئنانًا لقلبه وانشراحًا لصدره حيث أدى ما عليه لسيده ومولاه وتلك سعادة لا يعرف حقيقتها ولا يقف على كنهها إلا من ذاق لذة أداء الواجب لرب الأرباب ومالك الرقاب ومن هنا صح عنه ﷺ فى شأن الصلاة: «أرحنا بها يا بلال» يريد والله أعلم أقم الصلاة حتى ندخل فيها فيفاض علينا من الأنوار مالا يحد ولا يوصف كما جاء عنه ﷺ أيضًا فى شأنها أنه قال:

«وجعلت قرة عينى فى الصلاة».

والصلاة فى هذا كغيرها من بقية الأركان من زكاة وصيام وحج، فليس لأكبر عقل بشرى أن يتدخل فى هذه المأمورات بالاعتراض والانتقاد ما دام الأمر يرجع فيها إلى الله الذى أحاط بكل شىء علمًا والذى له الملك والملكوت. قال الكاتب المعروف عباس العقاد[١]:

«. . . ولا يتجه الاعتراض إلى وضع من أوضاعها إلا أمكن أن يتجه إلى الوضع الآخر لو استبدل منها ما يقترحه بما جرى عليه العمل وقامت عليه الفريضة منذ نشأتها. . لماذا يكون الصوم شهرًا ولا يكون ثلاثة أسابيع أو خمسة؟ لماذا تكون حصة الزكاة جزءًا من عشرة أجزاء ولا تكون جزءًا من تسعة أو خمسة عشر؟

لماذا نركع ونسجد ولا نصلى قيامًا أو ركوعًا بغير سجود؟

من اعترض بأمثال هذا الاعتراضات فليس ما يمنعه أن يعود إلى الاعتراض لو فرض الصيام ثلاثة أسابيع أو فرضت الزكاة فوق مقدارها أو دون هذا المقدار.

أو فرضت الصلاة على وضع غير وضعها الذى اتفق عليه أتباع الدين.

وليس معنى هذا أن تلك الأوضاع لا تعرف لها أسباب تدعو إليها وتفسر لنا إتباعها دون غيرها ولكن فى نهاية الأمر أوضاع توقيفية لا موجب من العقل للحكم فيها بالاقتراح أو التعديل. . لأن المقترح المعدل لن يستند إلى حجة أقوى من الحجة التى يرفضها ويميل إلى سواها.

ثم ذكر الأستاذ العقاد أنه يمكن أن تؤخذ من العبادات حكم وأسرار ويستخلص منها أغراض ومقاصد حسب ما يظهر للعقل فقال: والغرض من العبادات ينحصر فى حقيقتين:

الأولى: تنبيه المسلم إلى وجوده الروحى الذى ينبغى أن تشغله العبادة على الدوام بمطالب غير مطالبه الجسدية وغير شهواته الحيوانية.

الثانية: تنبيه المسلم إلى وجوده الخالد الباقى (فى دار البقاء) إلى جانب وجوده الزائل المحدود فى حياته الفردية. ولا مناص من تذكر الفرد لهذا الوجود الخالد الباقى إذا أريد فيه أن يحيا حياة يمتد بأثرها إلى ما وراء معيشته اليومية ووراء

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه.

معيشة قومه بل معيشة أبناء نوعه.

وعبادة المسلم فى جميع فرائضها تتكفل له بالتنبيه الدائم إلى هاتين الحقيقتين، إنه فى صلاته يستقبل النهار ويتوسطه مرتين ثم يختمه ويستقبل الليل بالوقوف بين يدى الله كأنه يستهديه فى عمله ويؤدى إليه الحساب عن هذا العمل من ساعة اليقظة إلى الساعة التى يستسلم فيها للرقاد أو ينطوى فيها تحت جنح الظلام. وإن المسلم فى صيامه ليذكر أنه ذو إرادة وتأخذ بيديها زمام الجسد ولا تترك لهذا الجسد أن يأخذ بزمامها ويتصرف بها على هواه.

أما الزكاة فى فرائض الإسلام فهى المذكر بحصة الجماعة من ماله الذى يكسبه بكده وكدحه، وهى المذكر له بأن يعمل لغيره ولا يعمل لنفسه وكفى، وهى الامتحان له فيما تهوى الأنفس من المال والمتاع حيث كان الصيام امتحانًا له فيما تهوى الأنفس من الطعام والشراب.

وإذا كان الإسلام دينًا يدعو الناس كافة إلى عبادة رب العالمين فالحج هو الفريضة التى تتمثل فيها هذه الأخوة الإنسانية على تباعد الديار واختلاف الشعوب والأجناس وهى فى اصطلاح العرف الشائع بين الناس بمثابة صلة الرحم وتبادل الزيارة بين أبناء الأسرة الواحدة يجمعها الملتقى فى المكان الذى صدرت منه الدعوة إليها وهو أجدر مكان، فى بقاع الأرض أن يتم فيه هذا اللقاء.

ثم قال: على أن عبادات الإسلام قد امتازت بين عبادات الأديان بمزية لا نظير لها فهى أرفعها وأرقاها بالنظر إلى حقيقتها وبالنظر إلى جماهير المتدينين بها، وتلك مزيته البينة التى يراعى فيها استقلال الفرد فى مسائل الضمير خير رعاية تتحقق له فى نظام الحياة، فالعبادات الإسلامية بأجمعها تكليف للإنسان وحده ولا تتوقف على توسيط هيكل أو تقريب كهانة.

يصلى حيث أدركه موعد الصلاة: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

ويصوم ويفطر فى داره أو فى موطن عمله، ويحج فيذهب إلى بيت لا سلطان فيه لأصحاب سدانة ولا حق عنده لأحد من قربانه غير حق المساكين المعوذين، ويذهب إلى صلاة الجماعة فلا تتقيد صلاته الجامعة بمراسم كهانة أو أتاوة محراب يؤمه فى هذه الصلاة الجامعة من أهل للإمامة بين الحاضرين وباختيارهم لساعتهم

إن لم يكن معروفًا عندهم قبل ذلك.

إنه الدين الذى نتعلم منه أن الإنسان مخلوق مكلف.

لا جرم تقوم عباداته على رعاية حق الضمير المسئول واستقلاله بمشيئته أكرم رعاية. اهـ بتصرف.

ويفهم مما تقدم أن عبادات الإسلام وإن كانت مظهرًا من مظاهر الخضوع لله، فقد يظهر منها للعقل البشرى بعض الحكم والأسرار، وأنها قد خصت دون سائر عبادات الأديان الأخرى باستقلال المكلف فى أدائها والقيام بمراسمها دون أن يكون لأحد من البشر عليه سلطان.

فما أجدر هذه التكاليف بالبقاء والدوام. وما أحقها بأن تكون هى الحصن الذى تتحصن به الدنيا كلها من عوائل الأيام وعاديات الزمن.

وما أسعد الناس كلهم جميعًا إذا انضموا تحت لوائها وانخرطوا فى سلكها وساروا على نهجها ونظامها.

وبعد ـ فإنا نستطيع أن نقول فى ثقة بالغة ويقين ليس وراءه يقين إن معانى القرآن الكريم ثابتة على مر الزمن حافظة لجدتها وقوتها مع تطورات المعارف ومكشوفات البحوث فما من جديد يجد فى البحث ويأخذ مكانه تحت الشمس فى ثبوت واستقرار إلا وفى القرآن الكريم ما يسعه ويسع الكثير غيره، وفى عباراته المرنة وتراكيبه المصوغة فى إبداع فائق وتصوير بارع ما يجعله ثابتًا قويًا أقوى ما يكون الثبوت راسخًا أشد ما يكون الرسوخ أمام كل ما يجد من معارف وفنون أيدتها الدلائل وشدت من أزرها البراهين ونسوق لذلك مثالين مما استحدث من المعارف واحتمال القرآن الكريم لها فنقول:

١ـ قال الله تعالى:

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

ففى هذه الآية يعدد القرآن وسائل المواصلات التى لم تعرف البشرية غيرها ألوفًا بعد ألوف من السنين وهى الفرس والبغل والحمار فلو أن آية القرآن وقفت عند حد ذكر هذه الأنواع فقط من المواصلات لاصطدمت مع التطور الذى انتهت الدنيا إليه حيث يوشك أن تنقرض هذه الأنوع بين ظهرانى الشعوب، ولكن هذه

الفقرة الأخيرة من الآية الكريمة ﴿ **وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ قد جعلت الآية تستوعب كل ما عرفنا حتى الآن من طيارات وقطارات وسيارات ودراجات وتستوعب كل ما يمكن أن يجد فى مستقبل الأيام من عجائب يصل إليها العقل البشرى.

٢ـ قال الله تعالى:

﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ** ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩].

فالقدامى يفسرون المقصود بعبارة ﴿ **وَمَا لا تُبْصِرُونَ** ﴾ بالجن والأشباح والأرواح على أن هذه الآية يمكن أن تكون فى نفس الوقت تفسيراً لهذا العالم الضخم الذى لم تكتشفه الإنسانية إلا منذ أمد قريب جداً وأعنى به عالم الميكروبات والجراثيم، هذه الأحياء المكروسكوبية والتى تملأ علينا الهواء والماء وتفعل فى حياتنا وتقتل فى أجسادنا وتتلف غذاءنا مع أنا لا نراها ولا نلمسها فما أصدق أن تكون عبارة الآية ﴿ **وَمَا لا تُبْصِرُونَ** ﴾ إشارة إلى هذه الأحياء وهكذا تتسع عبارة من عبارات القرآن الكريم لكل تطورات العلم ومعتقدات البشر جيلاً بعد جيل وقرنًا بعد قرن[1].

حقًا إنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكم خبير.. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

* * *

---

(١) فى الإيمان والإسلام ـ أحمد حسين.

القرآن ومدى استجابته لمطالب الحياة الحقة الصحيحة

حقيقة الأمر والواقع أن القرآن هو الذى له الهيمنة الكاملة وله السلطان التام على كل مناحى الحياة فما طلبه منها وألزمها به هو الذى يجب أن يكون، وما جنبها إياه وأبعدها عنه هو الذى يجب ألا يكون.

والقرآن كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾ [هود: ١] يعنى أنه محكم الآيات فلا يتسرب إليه خلل ولا تنال منه عوادى الأيام، ومفصل لا يحتاج إلى إكمال ولا إتمام، وهو المنزل من الحكيم الذى يضع الأمور فى أسمى مواضعها، الخبير الذى يعلم بواطن الأمور وما هى عليه فى الواقع.

والإنسان كما يقول أهل الحكمة، عالم مكون من مادة وروح وهو بهذا يتوسط عالمين آخرين (عالم المادة وهو عالم الحيوان، وعالم الروح وهو عالم الملائكة) ولابد من التوازن بين مادته وروحه حتى يستقيم أمره ويسعد فى أولاه وأخراه. فلو طغت مادته على روحانيته التحق بعالم الحيوان وهذا ما حذرت منه الشرائع ودعت إلى مجانبته والابتعاد عنه. وكان بهذا المزج صالحًا لعمارة الأرض وخلافته فيها دون الملائكة حيث إنهم روحانيون ليس لهم مطالب مادية جسدية (اقرأ هذه القصة فى الربع الثانى من سورة البقرة ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [البقرة: ٣٠].

والإنسان فى ماديته ومطالبه الجسدية مسوق للروحانية ومندفع نحو السمو الملائكى، والمادة عنده ليست غاية فى ذاتها ولا مقصودًا من مقاصده بحيث يقف عندها وينتهى إليها، لذلك نرى القرآن الكريم ينعى على الكافرين الذين جعلوا المادة غايتهم ومنتهى قصدهم.

حيث يقول عز وجل: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ**﴾ [محمد: ١٢]، ويقول عز من قائل فى حق الكفرة كذلك: ﴿**ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾ [الحجر: ٣].

ثم إنا نرى القرآن كذلك قد جعل الترف والانغماس فى النعيم الدنيوى من أسباب التكذيب فقال جل شأنه: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، وقال مبينًا سبب استحقاق الكفار لعذاب الخلود: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥]، فالقرآن الكريم حين أباح الانتفاع بالمادة وما فيها من متعة لم يكن ذلك منه قصدًا لذاتها وإنما لتكون عونًا للإنسان على سلوكه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقيين والشهداء الصالحين. كما أشرنا إلى ذلك سابقًا.

ونعنى بالمادة المعنى الواسع من صناعة وتجارة وزراعة فكل هذا فى نظر الإسلام يجب أن يكون مقصودًا به تقوية سلطان المسلمين حتى يدحضوا دولة الكفر وحتى لا يكون لها سلطان على الدنيا فى أى وضع من الأوضاع وفى أى مكان من الأمكنة، مخافة أن يفتنوا الناس ويصدوهم عن الحق الذى جاء به القرآن وإذ ذاك يفقد الناس سعادتهم الأبدية وعزهم السردمى.

ونسوق إليكم هنا ما قاله «ليوبولد فايس» الذى دخل الإسلام فيما نقله عنه الأستاذ محمد عبد الغنى حسن[1]:

ومن بين سائر الأديان نجد الإسلام وحده يتيح للإنسان أن يتمتع بحياته الدنيا إلى أقصى حد من غير أن يضيع اتجاهه الروحى دقيقة واحدة.

وهذا يختلف كثيرًا من وجهة النظر النصرانية.

إن الغرب الحديث ـ بصرف النظر عن نصرانيته ـ يعبد الحياة بالطريقة نفسها التى يعبد بها النهم طعامه، إنه يلتهمه ولكنه لا يحترمه

أما الإسلام فإنه ينظر إليها على أنها دار ممر فى طريقنا إلى وجود أسمى ولكن بما أنها دار ممر، ودار ممر ضرورية فليس من حق الإنسان أن يحقر حياته الدنيا ولا أن يبخسها شيئًا من حقها، إن سفرنا فى هذا العالم أمر ضرورى وجزء إيجابى من سنة الله. من أجل ذلك كان لحياة الإنسان قيمة عظمى ولكن يجب ألا ننسى أنها قيمة الواسطة إلى غاية.

ثم ليس هناك مجال فى الإسلام للتفاؤل المادى كما هو فى الغرب الحديث

(١) الإسلام بين الإنصاف والجحود ص٤٤.

الذى يقول: «مملكتى فى هذا العالم وحده» ولا لاحتقار الحياة الذى يجرى على لسان الديانة النصرانية: «إن مملكتى ليست فى هذا العالم»، إن الإسلام يتخير فى ذلك طريقًا وسطًا ولذلك يعلمنا القرآن الكريم أن ندعو فنقول: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١].

وهكذا نرى أن قدر هذا العالم وما فيه من متاع حق قدره لا يقف حجر عثرة فى سبيل جهودنا الروحية، إن النجاح المادى مرغوب فيه ولكنه ليس غاية فى نفسه إذ أن الغاية من جميع نشاطنا العملى يجب أن يكون خُلقًا ثم احتفاظًا بأحوال فردية واجتماعية كتلك التى يمكن أن تعمل على ترقية الفضائل الخلقية فى البشر.. وعلى هذا المبدأ ترى الإسلام يقود الإنسان نحو الشعور بالتبعية الأدبية فى كل ما يعمل سواء كان ذلك جليلاً أم ضئيلاً». اهـ.

وما دام القرآن يزن المادة بهذا الميزان وينظر إليها تلك النظرة فهو يحارب الرهبنة التى فشت فى النصرانية المنحرفة ولنبين الآن فى شىء من التفصيل نظرة القرآن إلى نظام الحياة العملية.

أولاً: نظرة القرآن إلى المال:

سماه القرآن خيرًا فى قول الله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ﴾ [البقرة: ١٨٠]، وفى قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

كما صانه من التبذير والإسراف حيث قال جل شأنه ﴿وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

وقد بلغ القرآن فى الحفاظ على المال والترفع به عن الامتهان درجة عظيمة ومبلغًا خطيرًا حيث حرم الربا تحريمًا قاطعًا وجعله من أكبر الكبائر وتوعد من لا يتركه بحرب من الله ورسوله. كذلك حرم القرآن جميع المعاملات التى تنطوى على غش أو رشوة أو أكل أموال الناس بالباطل أو تطفيف لكيل أو ميزان.

قال تعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]، وقال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ

﴿٣﴾ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١ـ ٦].

كما حث القرآن الكريم على استثماره، والعمل على تنميته، قال تعالى: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ [النساء: ٥] يريد ـ والله اعلم ـ أن من يستحق العطاء إنما يعطى من جهة نماء المال وزيادة الثروة وذلك باستعمال المال فيما يعود بالربح على مالكه من تجارة وصناعة.

هذا بعض ما نطق به القرآن، فى احترام المال وتكريمه ولا غرو فالمال عصب الأعمال كما يقولون فلولاه ما جهزت الجيوش ونظمت الصفوف التى تدفع عن الحق غائلة الباطل.

ثانيًا: القرآن والصناعة:

ذكر الله تعالى فى القرآن الكريم أن صنعتى البناء وعمل الدروع وهما من الصناعات التى تتوقف عليها حياة الناس، إذ البناء يمثل جانبًا من جوانب التعمير، وعمل الدروع يمثل جانبًا من جوانب القوة الدفاعية التى تحيا عليها الأمة وترتكز على أصولها. . ذكر أن هاتين الصناعتين قد وجدتا على يد نبيين عظيمين من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

ذكر أن إبراهيم قام ببناء أقدس بيت على أشرف بقعة وساعده ولده إسماعيل عليهما السلام.

وقال فى شأن داود عليه السلام ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وما أبدع قوله سبحانه فى هذه الآية ﴿لَكُمْ﴾ يعنى أن تعليم الله تعالى هذه الصنعة لنبيهم لكى يستطيعوا الدفاع عن الحق.

ثم إن قوله فى ختام الآية ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ يدل على أن تعلم الصنعة نعمة من أعظم نعم الله التى يستحق عليها سبحانه وتعالى كل شكر وثناء.

ونرى صناعة أمتعة البيت وأثاثه ظاهرة فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ

وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [النحل: ٨٠].

كما نرى ذلك أيضًا فى قوله تعالى حكاية عن جن سليمان: ﴿ **يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ [سبأ: ١٣].

وليتأمل قوله تعالى: ﴿ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ والقرآن يلفت النظر إلى معدن الحديد الذى يلعب الآن دورًا خطيرًا فى إقامة الصناعات فهو الذى سارت عليه البواخر فى عرض البحار، وسارت فوقه القاطرات وحلقت به الطائرات وأصبح الآن هو العنصر الفعال فى كل ما جد واستحدث من صناعة وعمارة فيقول الله تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ** ﴾ [الحديد: ٢٥].

وفى ذلك ما يفيد بوضوح أن هذا المعدن يجب أن يكون رصدًا ووقفًا على الدفاع عن الحق الذى أوحى الله به.

ثالثًا: القرآن والزراعة:

وكم للزراعة فى القرآن من آيات وآيات إذ هى الأصل الأول فى حياة الناس المادية قال جل ذكره: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ** ﴾ [الشعراء: ٧].

وقال تعالى: ﴿ **وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ [ق: ٧].

نرى فى الآية الأولى وصف النبات الذى يخرج من الأرض بأنه كريم ومعنى ذلك أنه يمد الإنسان بما هو فى ضرورة إليه من غذاء نافع كامل. وما أعظمه من كرم!!.

ونرى فى الآية الثانية وصف النبات بأنه حسن المنظر تأنس إليه النفس وتستلذ له العين ويطرب له القلب، فقد جمع النبات بتدبير الله وقدرته بين الغذاء والمتعة فحقًا ﴿ **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

وقال جل شأنه: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٦] إلى غير ذلك من عديد الآيات التى لا يتسع المقام لذكرها.

رابعًا: القرآن والتجارة:

أما التجارة فقد ذكرها الله تعالى فى القرآن منة على قريش خاصة وعلى الناس عامة وطلب إليهم أن يعبدوه من أجلها ويشكروه عليها فقال عز من قائل: ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾، وقال فى سورة البقرة فى آية المداينة بعد أن طلب من الدائن أن يستوثق بالكتابة على المدين واستثنى من ذلك التجارة الحاضرة.. قال سبحانه: ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾.

وبعد ـ فإن القرآن الكريم يتصل ـ كما قدمنا ـ بالحياة العملية أقوى اتصال إلا أن الميزة الخاصة التى امتاز بها القرآن واختص بها دون غيره أن هذه الأمور المتقدمة من زراعة وصناعة وتجارة لا تكون مقصودة لذاتها ولا أن يستمتع بها الناس لذات الاستمتاع بل الواجب والمحتوم فيها أن تكون قوة لحماية الحق الذى لا يعرف إلا فى الشريعة الإسلامية ولا يتمثل فى أجلى صورة إلا فى السنة النبوية.

ويعجبنى هنا ما قاله المستشرق النمساوى المسلم «ليوبولد فايس» من أن: «القوة الباطنية والتماسك الاجتماعى فى العالم الإسلامى كان أرقى من كل شىء خبره العالم عن طريق التنظيم الاجتماعى» وقال أيضًا: «إن الإسلام من وجهته الروحية والاجتماعية لا يزال أعظم قوة نهاضة بالهمم عرفها البشر».

ومثل ذلك ما قاله الباحث الألمانى «نيشته» عن الإسلام والحياة: «لقد حرمتنا المسيحية ميراث العبقرية القديمة ثم حرمتنا بعد ذلك الإسلام».

لقد ديست بالأقدام تلك المدنية العظيمة: مدنية الأندلس لماذا؟ لأنها نشأت من

أصول رفيعة وغرائز شريفة. نعم! من غرائز رجال. وإن تلك المدنية الإسلامية لم تنكر الحياة بل أجابتها بالإيجاب وفتحت لها صدرها، ولقد قاتل الصليبيون تلك المدنية وكان أولى بهم أن يسجدوا لها على التراب ويعبدوها، وما مدنيتنا فى هذا القرن التاسع عشر إلا فقيرة بجانب مدنية الإسلام فى ذلك الوقت»[١]. اهـ.

وإذن فيحق لكل منصف عاقل أن ينادى بأعلى صوته ويقول فى صراحة تامة إن الإسلام بمعالمه وحقائقه هو الذى يجب أن يسود الدنيا كلها وأن يكون له السلطان عليها لا لشيء ولا لغرض سوى أن يسعد أهلها سعادة أبدية وأن ينعموا بالنعيم السرمدى فى الأولى والآخرة والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

* * *

(١) يراجع كتاب الإسلام بين الإنصاف والجحود للأستاذ/ محمد عبد الغنى حسن.

الجانب الأخلاقى والاجتماعى فى القرآن

لا نكاد نقرأ فى القرآن دعوته إلى الأخلاق دون أن يكون ذلك مصحوبًا بالعقيدة الإيمانية ودون أن يكون مرتبطًا بها ارتباطًا وثيقًا لا يتأتى معه انفكاك ولا انفصال ومعنى ذلك أن الأخلاق عند المؤمن يجب أن تكون منبعثة عن يقين قوى وإيمان ثابت حتى تبقى بقاء العقيدة وتدوم بدوامها ويستحق المتخلق بها جزاءه من الله وينال بها الرضوان الأكبر.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩ - ٢٢].

وإذا تأملنا ما احتوته الآية الكريمة ودعت إليه من دعائم الأخلاق وقوائم السلوك وجدنا الوفاء بالعهد يتصدرها ويعتلى فيها المكان الأول وهو جدير بذلك وحقيق إذ هو بعمومه لا تخرج عنه شاردة ولا تند عن محيطه جزئية من بناء الإنسانية الكاملة فهو يشمل أمور الدين والدنيا فى الأفراد والجماعات فى أى وضع وعلى أى حال.

وذكرت الآيات فيما ذكرت - على ما قاله أكثر المفسرين - صلة الرحم وهو خلق فاضل وخصلة كريمة من خصال الخير، بها تتساند الأسر وتقوى رابطتها ويسودها روح المحبة والإخاء فإذا ما سعدت كل أسرة بهذا الخلق تولد من هذه الأسرة أمة متآخية مترابطة قوية على إقامة صرح الحق وهدم بناء الباطل لا تبغى بذلك إلا الله والدار الآخرة وما فيها من نعيم دائم مقيم.

ثم يأتى بعد ذلك ذكر «الصبر» وهو كما قال الحكماء: مطية النصر وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد - كما ورد فى بعض الآثار - ويراد به الصبر على طاعة الله وعن معاصيه وفى كل ما ينبغى الصبر فيه أو الصبر على المصائب

والنوائب أو الصبر على الشهوات فإن الصبر هو تجرع مرارة منع النفس عما تحب مما لا يجوز فعله.

ومما أبدع قوله: ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ فإنه يدل على أنه يجب أن يكون صبر المؤمنين عن إيمان واحتساب لا عن بلادة وعدم شعور.

ويجئ فى الآيات أيضًا خلق «المسامحة» وهو ما يصرح به قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ يعنى أنهم يدفعون جهل الجاهل بالحلم والصفح مصداق ما قاله فى الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وما جاء فى آية أخرى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

ثم إن القرآن الكريم يذكر نتيجة هذا التسامح فى الدنيا فى قوله فى سورة فصلت ﴿ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، ويذكر نتيجته فى الآخرة فى سورة الشورى ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وما أبدع قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾، يعنى الذين لا يقفون عند صورة الشيء ولا يقنعون بظاهره بل ينفذون من الصورة إلى المعنى ومن القشر إلى اللب ويصلون إلى السر واللباب.

على هذا النهج الذى انتهجته هذه الآيات فى ربط الأخلاق بالعقيدة رأينا القرآن الكريم دائمًا أبدًا، ولنسمعه حين يقول فى سورة لقمان حكاية عن وعظ لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَىَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وهذا أمر العقيدة ثم يقول بعد ذلك: ﴿يَا بُنَىَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٧- ١٩].

فنراه أمره بالأخلاق بعد أن دعاه إلى نبذ الشرك والإيمان بالله تعالى والعمل الصالح وهو ترتيب وتنسيق لابد منه فى تربية الإنسان وإصلاحه حيث دعاه أولاً إلى أن يكمل نفسه بالعقيدة والعمل الصالح ثم دعاه إلى أن يكمل غيره بعد ذلك

حيث قال: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾، والمعنى فى ذلك أن من تخلق بالأخلاق الفاضلة ولم يسبق هذا التخلق عمل صالح وعقيدة صحيحة كان هذا التخلق مبنيًا على غير أساس ليس لصاحبه أجر عند الله ولابد أنه آيل إلى الانهيار والزوال.

وقد اعترض هنا بين وصية لقمان لولده بوصيته بالوالدين والإحسان إليهما والشكر لهما وفى ذلك تصريح أن الإحسان إليهما يلى فى الرتبة والمنزلة توحيد الله جل جلاله.

واسمع القرآن واصغ إليه بقلبك حين يقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء:٢٣] إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء:٣٧ ـ ٣٩].

تدبر هذه الآيات وما احتوته من معان عالية وسامية فإنك واجد فيها ولا شك نظامًا شاملاً وقانونًا جامعًا لكل نواحى الحياة مما لا يستغنى عنه فرد ولا أمة ولا تسعد حياة دون الاحتذاء على منواله والسير على منهاجه.

وما أبدع قوله فى آخر الآيات: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾.

لقد علق عليها الخطيب الشربينى فى تفسيره بقوله: «وإنما سميت هذه الأمور حكمة لوجوه منها:

الأول: أن حاصلها يرجع إلى الأمر بالتوحيد وأنواع الطاعات والخيرات والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة فالآتى بمثل هذه الشريعة لا يكون داعيًا إلى دين الشيطان بل الفطرة الأصيلة تشهد بأنه يكون داعيًا إلى دين الرحمن.

الثانى: أن هذه الأحكام المذكورة فى هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية فى جميع الأديان والملل ولا تقبل النسخ والإبطال فكانت محكمة وحكمة من هذا الاعتبار.

الثالث: أن الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير للعمل به فالأمر بالتوحيد عبارة عن القسم الأول وسائر الأحكام والتكاليف عبارة عن تعلم الخيرات حتى يواظب عليها ولا ينحرف عنها فثبت أن الأشياء المذكورة من هذه الآيات عين الحكمة.

وقال الثعالبى فى تفسيره «الجواهر الحسان» عند هذه الآية: كان بعض المشايخ

يقول: «مجامع الخيرات محصورة فى أمرين صدق مع الحق، وخلق مع الخلق».

ولا بد لنا أن نبين معنى الخلق والأخلاق فنقول: الخلق هيئة فى النفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر أو روية فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعًا بسهولة سميت الهيئة خلقًا حسنًا وإن كان الصادر عنها أفعالاً قبيحة سميت الهيئة خلقًا سيئًا.

ثم ليعلم أن أخلاق القرآن تعلو وتسمو فوق نظريات الباحثين فى الأخلاق فليست هى توسطًا بين أطراف دائمًا بل نراها أحيانًا تسير فى طريق الوسط كما فى قوله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وكما فى قوله جل جلاله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

ولكنا نراها فى غير ذلك تنطلق إلى أعلى مستوى فتدعو إلى أسمى ذروة فى مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وكما فى قوله جل جلاله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠]. فهو يحض على التصدق على المدين ولو بكل المبلغ فلا توسط هنا ولا اعتدال إنما هو المثل الأعلى فى التراحم والتوادد بين الناس ابتغاء ما عند الله من أجر وثواب.

كذلك ترفعت فوق المجاملات الشخصية التى قد تجر إلى مفاسد ومضار قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]. إلى قوله جل ذكره: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

ولا يقيس القرآن أخلاقه بمجتمع من المجتمعات فإن المجتمع أقل من أن يدرك الحق المطلق والخير العام فقد يرى الضار نافعًا والفساد صلاحًا خذ لذلك مثلاً أمر الميسر فالقرآن يحرمه تحريمًا باتًا ولا يلتفت إلى ما بين المتقامرين من تراض ولا إلى أن بعض الحكومات تبيحه وتجعله موردًا من مواردها وذلك لأنه يفقر المقامر ويهد أعصابه وقد يؤدى إلى الانتحار ويحرم أولاده والزوجة من مال الزوج الذى به

قوام معاشهم وفى الحديث «إن من أكبر الإثم عند الله أن يضيع الرجل من يعول».

وكذلك السفه والتبذير فإن القرآن يمنع منهما منعًا باتًا ويأمر بالحجز على السفيه المبذر ويوقف كل تصرفاته المالية لأن تبذير السفيه هو ضد الحق بما يؤدى إليه من حرمان الأولاد والزوجة من المال الذى به قوام حياتهم ولأنه ضد الخير الخاص بما يؤدى إليه من إفقار المبذر وإذلاله، وضد الخير العام بما يؤدى إليه من تقويض العائلة.. والعائلة إحدى خلايا المجتمع، قال تعالى: ﴿**وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا**﴾ [النساء: ٥].

على حين أن بعض المجتمعات غير الإسلامية تبيح لكل إنسان أن يصرف أمواله ويهدرها فى أى سبيل شاء.

والسكر والخمور والمخدرات فإن القرآن يمنع منه كذلك لأنها ضد الحق حق الأولاد من حيث إن عقل الرجل وجسده ليس ملكًا له وحده بل فيهما حق لأولاده، الذين يرثون عقلاً مخبولاً وجسدًا معلولاً، وفيها حق للعائلة التى يقوم على سلامة عقل رب البيت وحده أمر خيرها ومعيشتها، يمنع القرآن هذا كله مع أن بعض الأمم التى كفرت بالقرآن ولم تؤمن به تبيح السكر بالخمر دون المخدرات مع أن علة المنع تكاد تكون واحدة وهى الضرر الصحى والأخلاقى للفرد والعائلة والمجتمع.

أما عن نظرية «أخلاق القوة» فإن القرآن يحببها إلى نفس المسلم فى جسده وروحه على أساس أن تكون قوة عاطفة على الضعيف والمسكين ويمقتها قوة تصان بالجبروت والخيلاء ولا ينال الضعفاء منها غير الهوان والإذلال. قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ [لقمان: ١٨].

﴿**فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**﴾ [النحل: ٢٩]، ولا يستحب القرآن القوة للقوى إلا ليدفع بها عدوان الأقوياء على المستضعفين العاجزين عن دفع العدوان قال تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ**﴾ [النساء: ٧٥].

وقد تكلم الأستاذ العقاد عن هذه المعانى الأخلاقية كلامًا طيبًا جميلاً فى كتابه «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» فليراجع.

وبعد فقد بان أن القرآن فى دعوته إلى الأخلاق إنما يلتزم طريقة فذة وينهج منهجًا خاصًا لا يشاركه فيه غيره بل ولا يقترب منه أقل قرب، ولا غرو فهو تنزيل من حكيم حميد ممن يعلم السر وأخفى ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه:٨] يعنى أن طريقته فى الأخلاق معجزة، ومنهجه تتقاصر عنه عقول العلماء والفلاسفة.

هذا نذر يسير من الجانب الأخلاقى فى القرآن الكريم.

ثانيًا: الجانب الاجتماعى

فلم يذكر القرآن اسمه وعنوانه بل ذكر معناه ومسماه، نعم ذكر معناه أوفى ما يكون ذكر المعنى، وبين مسماه أكمل ما يكون بيان المسمى وذلك أن علوم القرآن كما ذكر العلماء أنواع ثلاثة:

١ـ توحيد.

٢ـ أحكام.

٣ـ أخلاق.

وينطوى فى القسم الثانى منها كل ما قاله هؤلاء الباحثون فى تنظيم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان (علم الاجتماع) ففيه الزكاة وهى نظام اجتماعى وهو يستهدف تعايش الناس فى أمن واطمئنان وراحة وسلام ثم يستهدف بعد ذلك دفع الكل إلى العمل الصالح لخيرى الدنيا والآخرة.

والزكاة وهى جزء معلوم يخرج من مال معلوم ويعطى لمن يستحقه، كانت أحد الأسباب التى عالج القرآن بها «مشكلة الفقر» وقد جعلها القرآن فى المرتبة الثالثة بعد الإيمان بالله وإقام الصلاة، كما زجر من يتهاون بها وجعله فى عداد المشركين بقوله سبحانه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت:٦، ٧] كما أمر بإخراجها من أطيب الأموال وأحبها للنفوس قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة:٢٦٧].

كما علل استحقاق الكافر أشد ألوان العذاب بعد تركه الإيمان بالله بقوله جل شأنه: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة ٣٠ ـ ٣٤].

قال العلماء: إذا استحق هذا العذاب لأنه لا يحض على طعام المسكين فمن باب أولى أن يستحق العذاب لأنه لا يطعمه.

كما جعل من أسباب سلوك المجرمين فى سقر بعد ترك الصلاة أنهم كانوا لا يطعمون المسكين قال تعالى: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝٣٩ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٣٩ ـ ٤٤].

وبعد هذا كله جعل القرآن الكريم هذا العطاء حقًا للفقير لا منة للغنى عليه فيه، بل توعد القرآن من يمن بالصدقة بضياعها وإبطال ثوابها قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، إلى غير ذلك فى كثير من المواضع وعديد من الآيات.

وكانت الكفارات أيضًا عن الحنث فى اليمين، والقتل الخطأ ومخالفة بعض أحكام الشريعة كما فى الظهار وأحكام الحج والصيام ـ سببًا من الأسباب القرآنية لمعالجة هذا الداء والتخفيف من حدته وويلاته.

وكذلك النذر فى حالة ما إذا التزم المسلم إخراج شىء من ماله عندما يحقق الله له غرضًا من أغراضه الصحيحة ومقاصده الشريفة[1] قال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، قال تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

---

(١) النذر نوعان: نذر بر خالص لله، يلتزم به المسلم طاعة لله من غير سبب معين، وهذ هو الأفضل والأكثر ثوابًا. ونذر معلق كقول المسلم: إن شفى الله مريضى صمت كذا أو تصدقت بكذا، وهذا مكروه شرعًا، لا يتناسب مع نعم الله التى لا تعد ولا تحصى، وقد أخبر النبى ﷺ أنه لا يرد من قضاء الله شيئًا وإنما يستخرج به من مال البخيل.

هذا وقد حارب القرآن هذه المشكلة بالأمر بالسعى فى الأرض لطلب الرزق فقال: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

وقال عز وجل: ﴿فَانتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] حتى قال العلماء: أن القادر على الكسب وهو محتاج إلى النفقة لنفسه أو لعياله يجب عليه أن يكسب ويحرم عليه أن يبقى عالة على غيره.

بل قد راعى القرآن ظروف الكادحين فى سبيل العيش فخفف عنهم ـ مع من خفف ـ بعض أعباء العبادة قال عز سلطانه: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

ثم إنه مما يجب أن يعلم أن رعاية القرآن للفقراء لم تكن مادية فحسب بل كانت معنوية وروحية بصورة رائعة وبشكل واضح فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

وهذا يجرنا إلى أن نتكلم عن مبدأ فى القرآن مهم بالنسبة لتنظيم المجتمع ألا وهو مبدأ المساواة.

• المساواة:

يقرر القرآن الكريم أن الناس جميعًا لا تفاوت بينهم من جهة إنسانيتهم ولا أصلهم الذى خلقوا منه فإن كان ولابد بينهم من تفاوت فبالنسبة للدنيا ما يحسنه كل امرئ من عمل صناعى أو زراعى أو تجارى.. وبالنسبة للآخرة فالقيام بحق الله وحق العباد على أكمل وجه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال عز سلطانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا

وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وهذا على خلاف ما كانت عليه الأمم قبل الإسلام من عرب ويونان وهنود ويهود، وإليك كلمة عن هذه الأمم[١]:

كان العرب فى جاهليتهم يعتقدون أنهم شعب كامل الإنسانية وأن الشعوب الأخرى التى كانوا يطلقون عليها اسم الأعاجم شعوب وضيعة ناقصة الإنسانية.

أما قدماء اليونان فاعتقدوا أنهم شعب مختار قد خلقوا من عناصر تختلف عن العناصر التى خلقت منها الشعوب الأخرى التى كانوا يطلقون عليها اسم البربر وأنهم هم وحدهم كاملو الإنسانية مزودون بجميع قوى العقل والإرادة أما باقى شعوب الأرض فمجردون عن تلك القوى وهم أقرب إلى فصائل الأنعام.

والكتب المقدسة للهنود البرهميين تقرر التفاضل بين الناس بحسب عناصرهم ونشأتهم الأولى فتذكر أن «براهما» قد خلق فصيلة البرهميين من فمه وفصيلة الكشتريين من ذراعه وفصيلة الودرائيين من قدمه.

وكان الإسرائيليون يعتقدون أنهم شعب الله المختار وأن الكعنانيين شعب وضيع بحسب النشأة الأولى قد خلقه الله ليكون رفيقًا للإسرائيليين ثم بقيت رواسب هذه التفرقة العنصرية لدى كثير من الأمم غير الإسلامية فى العصر الحاضر مما يندى له وجه الإنسانية فى أمريكا وجنوب أفريقيا.

ومن هذا كله يظهر لنا الفتح العظيم الذى فتحه الإسلام فى تاريخ النظم الاجتماعية إذ قرر أن الناس جميعًا سواسية فى القيمة الإنسانية المشتركة وأنه لا فضل لإنسان على آخر إلا بكفايته وعمله ودينه.

وقرر القرآن أيضًا مساواة الناس فى المسئولية والجزاء دون تفرقة بين صعلوك وأمير ولا بين غني وفقير ولا بين مسلم وغير مسلم ولا بين رجل وامرأة فالعدالة الإسلامية لها ميزان واحد يطبق على جميع الناس. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، ويقول جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ

(١) راجع كتاب (المساواة فى الإسلام) للدكتور/ على عبد الواحد وافى.

إن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ [النساء: ١٣٥].

يعنى أن القرآن يطلب من المؤمنين أن يكونوا مبالغين فى تمسكهم بالعدل وقيامهم به مواظبين عليه دائما أبدًا لا يخلون عنه فى قضية من القضايا ولا حادثة من الحوادث كما يفيده التعبير بكلمة ﴿ **قَوَّامِينَ** ﴾.

يطلب إليهم بعد ذلك أن يكون قيامهم هذا لوجه الله لا لغيره من دنيا عريضة وجاه واسع فذلك كله مضمحل زائل لا يفى بأقل انحراف عن الحق وابتعاد عنه. وأما قوله: ﴿ **وَإِن تَلْوُوا** ﴾ ففيه على ما قاله بعض المفسرين تنزيه للقاضى من أن يميل ويقبل على بعض الشهود ويعرض عن البعض الآخر، فلله ما أبدع هذا وما أروعه وأعظمه وما أجمله فحقا إنه تنزيل من رب العالمين.

كما أن فى الآية الأولى بيان أن البغض لقوم لا يكون داعيًا لترك العدل معهم حتى ولو كانوا كفارًا، قال الخطيب الشربينى عند تفسير هذه الآية: فيها تنبيه عظيم على أن وجوب العدل مع الكفار الذى هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة فما ظنك بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه.

فأين هذا السمو الإسلامى من تعاليم اليهود التى تنص على أن قتل اليهود بعضهم بعضًا محرم وكذا إخراج بعضهم بعضًا من ديارهم فى حين أنه مباح للإسرائيليين بل واجب عليهم غزو الشعوب الأخرى وواجب عليهم بعد انتصارهم على بلد ما «أن يضربوا رقاب جميع رجالها البالغين بحد السيف» فلا يبقوا على أحد منهم ويسترقوا جميع نسائها وأطفالها ويستولوا على جميع ما فيها من مال ومتاع أو ينهبوه نهبًا حسب تعبير أسفارهم.

وقد ذكرنا فيما سبق موقف الشريعة البرهمية بصدد التفرقة العنصرية بين الطبقات وموقف الشريعة اليونانية بصدد التفرقة العنصرية بين اليونان وغيرهم وما يترتب على هذه التفرقة فى الحقوق والمعاملات.

ويعجبنى هنا قول الأستاذ. عبد الرحمن عزام[1] مقارنًا بين المساواة فى الإسلام وبين المساواة المزعومة فى بلاد الكفر من أمريكا وغيرها قال: إن مبدأ المساواة شائع

---

(١) الرسالة الخالدة.

الآن فى أوروبا وأمريكا ومؤيد بشرائع وقوانين ولكنه لم يمنع من القتال والحرب والفساد وهو قول ظاهره فيه الحق وباطنه من قبله الباطل، فإن الأنانية والمادية لم تبلغا فى عهد من العهود ما بلغته فى عهد المساواة القائمة فى القوانين الحديثة فى الغرب ولم تصل القطيعة والأثرة حتى فى العهد الإقطاعى إلى ما وصلت إليه اليوم ولم تسيطر روح الشر بما فيها من غل وحسد سيطرتها فى السنوات المائة الأخيرة.

والسبب فى ذلك أن التسليم بحق المساواة فى القرآن مقرون بالعقيدة والإيمان فهو فى صميم قلب المؤمن وهو المسيطر على ضميره فلا خداع فيه ولا نفاق.

هذا فضلاً من أن النظام الاجتماعى فى الإسلام ليس قائمًا على تنازع السلطات وعلى استقرار الأمر كنتيجة لهذا النزاع ولا على توازن القوى حتى يفسد بفساد هذا التوازن.. وإنما يقوم على التكافل بين أهله الملة وعلى الروح الجماعية وعلى المقصد الأسمى للوجود وهو الكمال الروحى للفرد والأمة.

وننتقل ـ بعون الله ـ إلى ناحية مهمة فى حياة المجتمع وهى:

* * *

تنظيم الأسرة وموقف القرآن

ربط القرآن الكريم بين الرجل والمرأة برباط الزوجية وهو رباط مقدس له أهميته وعليه يبنى صرح سعادتهما مع أولادهما. وقد طلب إلى كل منهما أن يقوم بما افترضه عليه نحو الآخر مع جعل القوامة للرجل على المرأة. قال تعالى: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وإذا كان على الرجل نفقة زوجته وكسوتها وسكناها مع أولادها القاصرين وأطفالها الصغار بنص قوله: ﴿**وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقوله: ﴿**أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم**﴾ [الطلاق: ٦] فإن على المرأة أن تحفظ حقه غائبًا وحاضرًا وأن ترعى خير رعاية ماله وأولاده وأن تقدم فى دائرتها واستطاعتها للأسرة كل منفعة تستجلب السعادة الكاملة والهناء المقيم.

وقد تتكون بعد الزواج أسباب تجعل استمرار الشركة شرًا كبيرًا وعدوانًا صارخًا على حق الزوجين حين يحرمان من نعمة السكينة العائلية فى حال الشقاق أو الخيانة أو من نعمة الأولاد فى حال العقم وأمام هذه النظرة العقلية حل الإسلام المشكلة حين أباح حرية الطلاق بين الزوجين أخذًا بمفهوم الحرية عنده لأن تقييد حرية الطلاق تقييدًا مطلقًا قد يجعل العائلة خلية عفنة كالأكلة فى جسم المجتمع الذى تؤلف العائلة إحدى خلاياه.

ومن مفاخر الإسلام أن نظريته قد انتصرت أخيرًا فى العالم كله تقريبًا فلم تبق أمة من الأمم الغربية إلا وقد أصبح الطلاق رغمًا عن حكم الكنيسة فى صميم قوانينها الحديثة. تلك هى نظرة القرآن للطلاق فما يقع فيه بعض الناس مخالفًا تلك النظرة وذلك السبب فلا اعتراض علينا به لأنه معتد على حق الشرع والقرآن، آثم لمخالفته نصوصه وأحكامه ينال من الله جزاء مخالفته، فالواقع شىء والواجب شىء آخر.

• تعدد الزوجات:

نشير فى إجمال وإيجاز إلى هذا الأمر الخطير الذى لاكته الألسن وتحدث الناس به كثيرًا. فنقول: إن تعدد الزوجات إلى أربع هو محل إجماع كما ورد فى القرآن فلا جدال فى ذلك ولا نزاع فيه والذى يهمنا أن نبين الكيفية التى أباح بها الإسلام هذا التعدد. قال تعالى: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا**﴾ [النساء: ٣]، لم يشرط القرآن سوى العدل فى النفقة والقسم فى البيت وما يتبع ذاك من حقوق فإذا تبين عدم العدل وأحس الرجل من نفسه بأنه لا يقوم بكل ما يطلب منه فى هذا الشأن وجب عليه الاقتصار على واحدة.

وقد زعم بعض الناس أن العدل غير مستطاع لقوله تعالى: ﴿**وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**﴾ [النساء: ١٢٩]، وهذا الكلام لا أساس له إطلاقًا لأن العدل المنفى هو الميل القلبى والعدل المثبت المطلوب هو العدل فى القسم والنفقة كما أسلفنا وهذا ما يقتضيه الأسلوب العربى إذ كيف يشترط العدل فى أول السورة

ومعنى الاشتراط أن فى وسع المكلف أن يأتيه ثم يأتى بعد أكثر من مائة آية تقريبًا وينفى العدل ويقول إنه غير مستطاع. فالعقل الصحيح والنظر الصائب يقضيان بالتفاوت بين موردى النفى والإثبات. فالمخالف لهذه القاعدة خارج عن دائرة القياس لا يعتد به ولا حجة بعمله على التشريع كالسابق فى أمر الطلاق.

هذا هو الأصل الأول فى الموضوع فإن وجد مثل عقم الزوجة أو مرضها الذى لا أمل فى شفائه كان الأمر آكد من الأول وألزم فى نظر العرف والدين.

يقول الشيخ نديم الجسر:

(إننا حين نحرمه من حق التزوج بامرأة ثانية سنضعه أمام ثلاثة حلول كل حل منه أقبح من الآخر: فإما أن يرضى بهذه التعاسة التى نزلت به من جراء حرمانه من اللذه والهناء ونعمة الأولاد.. وهذا ضد الحق وضد الخير وضد الفطرة.. وإما أن يسعى إلى إشباع لذته الجسدية من طريق الزنا وهذا ضد الخير العام والخاص وإما أن يتجرد من الرحمة والمودة والوفاء فيطلق الزوجة العاقر أو المريضة المسكينة التى لا ذنب لها وقد تكون بلا عائل ليستطيع أن يتزوج بأخرى سواها.

لا حل من هذه الحلول يختاره المنصف)[1].

فليس إلا أن يتزوج تمشيًا مع فطرته وتحقيقًا لغايته التى ينشدها وأن يحتفظ بزوجته الأولى دون أن يلحقها أذى الفراق أو تتضرر.

ولما أسس القرآن بنيان المجتمع الإنسانى على الأسس الصالحة والقواعد الثابتة التى بعضها ما ذكرناه صانه كذلك من التهشم والضياع، وحرص كل الحرص على ألا يتسرب إليه شىء من الفساد أو يشوبه شىء من الخلل.. فحرم القتل عن عزم وتصميم، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٩٣].

كما جعل فى القتل الخطأ دية مفصلة موضحة فى القرآن فى قوله سبحانه: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا...**﴾ الآية [النساء: ٩٢].

كذلك صان المجتمع من غائلة الزنا وحماه وحصنه من وباء تلك الفاحشة التى هى أضر من كل الآفات وأفتك من كل العاهات الموبقات قال تعالى: ﴿**وَلا تَقْرَبُوا**

(١) فلسفة الحرية فى الإسلام ـ الأستاذ/ نديم الجسر.

﴿الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢]، فنهى سبحانه وتعالى عن قربانه يعنى اللمس والنظرة فضلاً عن إتيانه ثم بين أنه فاحشة يعنى شديد القبح فى العقول والنفوس وأنه بئس السبيل يسلكه الإنسان العاقل.

قال الأستاذ نديم الجسر: «فالزنا فى كل الأديان وعند كل العقول السليمة شىء قبيح ولكنه فى مفهوم الحرية عند الغربيين لا يكون ممنوعًا إلا عندما تمنعه القوانين. والقوانين الغربية لا تمنع الزنا إلا فى ثلاثة أحوال: عندما تكون المرأة متزوجة وعندما تكون الفتاة قاصرة وعندما يكون الفعل بالجبر وفيما عدا ذلك فإن الزنا المستور والغزل الداعر المفضوح ولو على الطريق العام مباحان يحميهما القانون».

وواضح من هذا العرض اليسير الذى سقناه والنذر القليل الذى ألمحنا به أن الشرائع التى كانت موجودة قبل الإسلام دينية كانت أو فلسفية وكذلك القوانين التى جدت بعد الإسلام من وضع هؤلاء الذين لم يؤمنوا بالقرآن ولم يصدقوا بالإسلام عنادًا وحسدًا. . ، كل هذه قد عجزت تمامًا عن إقامة مجتمع فاضل تسوده المحبة والوئام وترفرف عليه أعلام العزة والكرامة وأنها لم توفق للاهتداء إلى دواء ناجع يستأصل الداء من أساسه ويقتلع المرض من جذوره وأن القرآن وحده هو الذى أعجز الكل فى هذا المضمار وفاز بالغاية فى هذا الميدان.

فحقًا إنه معجز فى أخلاقياته واجتماعياته كما أنه معجز فى أسلوبه وبيانه وسائر فنونه وهداياته.

* * *

الذرية الطيبة والولد الصالح فى رسم القرآن وبيانه

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٨، ٣٩].

﴿هُنَالِكَ﴾ فى كلام العرب إشارة إلى مكان أو زمان فيه بعد، ومعنى هذه الآية أنه فى الوقت الذى رأى زكريا رزق الله لمريم ومكانتها من الله وفكر فى أنها جاءت أمها بعد أن أسنت وأن الله تقبلها وجعلها من الصالحات.. وتحرك أمله لطلب الولد وقوى رجاؤه وذلك منه على حال من وهن العظم واشتعال المشيب فدعا ربه أن يهب له ذرية طيبة.

(الذرية) اسم جنس يكون واحدًا وجمعًا، وذكرًا وأنثى كما أن الولد اسم جنس كذلك، والمراد بالذرية هنا واحد بدليل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي﴾ [مريم: ٥، ٦]، وإنما قال: ﴿طَيِّبَةً﴾ لتأنيث لفظ الذرية.

﴿طَيِّبَةً﴾ معناها سليمة فى الخلق والدين، وقوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ﴾ قبله محذوف دل عليه ما ذكر تقديره: فقبل الله دعاءه وبعث الله الملائكة فنادته... وذكر جمهور المفسرين أن المنادى هو جبريل والمراد بالملائكة الجنس كما فى قولهم فلان يركب الخيل. وقال قوم: بل نادته ملائكة كثيرة حسبما تقتضيه ألفاظ الآية.

وهذا هو الظاهر ولا يعدل عنه إلا أن يصح فى ذلك حديث عن النبى ﷺ فيتبع.

ثم إن قوله تعالى ﴿فَنَادَتْهُ﴾ عبارة تستعمل فى التبشير وفى الشىء الذى ينبغى أن يسرع به وينتهى إلى نفس السامع ليسر به، فلم يكن هذا من الملائكة إخبارًا على عرف الوحى بل نداء كما نادى الرجل الأنصارى كعب بن مالك من أعلى الجبل.

وقوله: ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾، والمحراب فى هذا الموضع موقف الإمام من المسجد و(يحيى) اسم سماه الله به قبل أن يولد واختلفوا فى تسميته

(يحيى) قال ابن عباس: لأن الله أحيا به عقر أمه وقيل لأن الله أحيا قلبه بالإيمان، وهو اسم أعجمى منع صرفه للتعريف والعجمة كموسى وعيسى. وقيل عربى ومنع صرفه للتعريف ووزن الفعل.

﴿مُصَدِّقًا﴾ نصب على الحال قال ابن العباس وغيره (الكلمة) هنا يراد بها عيسى ابن مريم وسمى عيسى كلمة لأنه صدر عن كلمة من الله وهى كن لا بسبب إنسان.

﴿سَيِّدًا﴾ خص الله سبحانه يحيى بالسؤدد الذى هو الاعتمال فى رضى الناس على أشرف الوجوه دون أن يقع فى باطل، وتفصيل القول فى السؤدد هو أن يقال:

أولاً: بذل الندى وهذا هو الكرم.

ثانيًا: كف الأذى ويصور بأنه هو العفة بالفرج واليد واللسان.

ثالثًا: احتمال العظائم ويفسر أنه الحلم وغيره من تحمل الغرامات والإنقاذ من المهلكات.

وانظر إلى قول النبى ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» فإن هذه السيادة له ﷺ تتمثل بأجلى صورة وأوضح بيان فى شفاعته ﷺ لبنى آدم ولذلك استحق السيادة عليهم جميعًا.

وتفسير السؤدد بما قدمنا من أنه اعتمال فى رضى الناس... إلخ.

هو ما اقتضاه كلام العرب ونطق به شعراؤهم. قال قائلهم:

ببذل وحلم ساد فى قومه الفتى   وكونك إياه عليك يسير

وتفسير السؤدد بالعلم والتقى ليس على ما يقتضيه كلام العرب، فإن العلم قد اتصف به يحيى بقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ﴾ واتصف بالتقى والصلاح بقوله: ﴿وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهنا تبين أن يحيى وصف فى هذا المقام بأربع صفات:

الأولى: العلم ويؤخذ من قوله سبحانه: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾.

الثانية: السؤدد بمعناه المتقدم وهو صريح قوله تعالى: ﴿سَيِّدًا﴾.

الثالثة: ضبط النفس ومنعها من الشهوات والأهواء وهو ما يفيده قوله:

﴿وَحَصُورًا﴾.

الرابعة: الصلاح أعنى قيامه بحق الله وحق العباد وهو ما يفيده قوله: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وفى هذا من الإجمال ما فيه ويفصل هذا الإجمال قوله تعالى فى سورة مريم: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٢ - ١٥].

ففى هذه الآيات ثمانى صفات نبينها فيما يلى:

أولاً: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾: أى الحكمة بمعنى إصابة السداد فى القول والعمل، بما فى ذلك فهم التوراة وتعرف ما فيها، ومن حكمته أن الصبيان دعوه إلى اللعب وهو طفل فقال: إنى لم أخلق للعب.

وقال ابن العباس: «من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممن أوتى الحكمة» ويرى بعضهم أن المراد بالحكم النبوة ومعنى ﴿صَبِيًّا﴾ على هذا أنه شاب لم يبلغ حد الكهولة ففى لفظ ﴿صَبِيًّا﴾ على هذا تجوز ويرى بعضهم أنه أعطى النبوة فى صباه حقيقة يعنى أن الله أحكم عقله فى صباه.

ثانيًا: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾: أى وآتيناه رحمة وهيبة ووقارًا ورقة قلب. ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ أى من عندنا بلا واسطة تعليم ولا تجربة وقال بعضهم: ﴿وَحَنَانًا﴾ أى تعظيمًا يعنى أنه يعظم الأشياء لأجل الله تعالى، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل فى خبر بلال: «والله لئن قتلتم هذا العبد لأتخذن قبره حنانًا».

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿وَزَكَاةً﴾ أى آتيناه طهارة فى دينه وتنمية وزيادة فى وجوه الخير.

رابعًا: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ أى مخلصًا مطيعًا.

خامسًا: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ أى محسنًا إليهما لأنه لا عبادة بعد تعظيم الله أعظم من بر الوالدين يدل عليه قوله سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

سادسًا: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ أى متكبرًا كأنه يجبر الناس على أخلاقه.

والمراد وصفه بالتواضع ولين الجانب وذلك من صفات المؤمنين، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:٨٨]، وقال جل شأنه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩] ولأن رأس العبادة معرفة الإنسان نفسه بالذل ومعرفة ربه بالعظمة والكمال.

ومن عرف نفسه بالذل وعرف ربه بالكمال كيف يليق به التجبر والترفع..!! ولذلك لما تجبر إبليس وتمرد صار مبعدًا عن رحمة الله وعن المؤمنين. وقيل الجبار هو الذى لا يرى لأحد على نفسه حقًا وقيل هو كل من عاقب على غضب نفسه.

سابعًا: قوله تعالى: ﴿عَصِيًّا﴾ أى عاقًا أو عاصيًا ربه وهو أبلغ من العاصى كما أن العليم أبلغ من العالم.

ثامنًا: ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ...﴾ إلخ أى أمان عليه فى هذه المواطن الثلاثة يعنى أمان من الله تعالى عليه يوم ولد من أن يناله الشيطان كما ينال بنى آدم، وأمان عليه يوم يموت من عذاب القبر. وأمان عليه يوم يبعث من عذاب الله يوم القيامة.

وقد قال بعض العلماء: والأظهر عندى أنها التحية المتعارفة فهى أشرف من الأمان لأنه متحصل له بنفى العصيان عنه. وهو أقل درجاته وإنما الشرف فى أن سلم الله عليه وحياه فى المواطن التى يكون الإنسان فيها فى غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة.

هذا وقد اعترض بأن زكريا دعا الله تعالى أن يهبه ولدًا يرثه مع أن يحيى قتل فى حياة أبيه فلم يحقق إرثه منه، وأجيب بأن إجابة دعاء الأنبياء غالبة لا لازمة، فقد يختلف لقضاء الله بخلافه كما فى دعاء إبراهيم عليه السلام فى حق أبيه وكما فى دعاء نبينا محمد ﷺ فى قوله: «وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها» ولما كان من قضاء الله تعالى أن يوجد يحيى نبيًا صالحًا ثم يقتل استجيب دعاء زكريا عليه السلام فى إيجاده دون إرثه.

وبعد:

فهذا هو الأنموذج الصالح فى تربية الأولاد، وتنشئة الذرية فهل لنا أن نتدبر القرآن وأن ننهج نهجه فى تربية أبنائنا وأولادنا، إننا لا نطلب لهم أن يكونوا أنبياء

كما طلب زكريا عليه السلام بل الذى يجب أن يكون هو أن ندعو الله العلى القدير وأن نطلب منه أن تكون أولادنا على النبع القرآنى والطريق المحمدى حسبما بين الله تعالى فى صفات عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

قال المفسرون: المعنى نراهم مطيعين لله إذ لا شىء أسر للمؤمن من أن يرى حبيبه مطيعًا لله تعالى، وعن محمد بن كعب: «ليس أقر للعين من أن يرى المؤمن زوجته وأولاده يطيعون الله»، وعن ابن عباس: «هو الولد إذا رآه يكتب الفقه» وكما جاء فى سورة الأحقاف فى دعاء الرجل الذى بلغ أربعين سنة ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ [الأحقاف:١٥] فقد طلب أن تكون ذريته موضعًا للصلاح ومحلاً له وفى ذلك من المبالغة ما فيه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

* * *

قوامة الرجل على المرأة والعلاج الحاسم للنزاع بينهما

قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤، ٣٥].

هذا النص الكريم كغيره من النصوص مما يتعلق بأمر النساء لا يحتاج إلى تأويل ولا اجتهاد فهو صريح المعنى والغرض الذى سيق له، وهو قوى فى دلالته على المراد منه أتم ما تكون القوة وأكمل ما تكون الدلالة، وليس ما وصلت إليه المرأة اليوم من سوء حالها وتدهور أخلاقها وعدم سيرها على النهج القرآنى إلا لانفكاكها من هذه القوامة وخروجها عن قانون هذه الرعاية.

وفى الحق أنه ليس من إصلاح وصلاح لأهل الدنيا كلها إلا فيما حدده كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ إذ لا يعلم حقيقة المخلوق إلا الخالق ولا يدرى الصنعة إلا الصانع ولا يستطيع وصف الدواء لجميع العلل والأمراض إلا من أحاط بكل شىء علمًا وهو بخلقه رحمن رحيم، وإن فيما تعانيه الدنيا الآن من أزمات مستحكمة لم تحلها تلك المخترعات إنما زادتها شدة وخطورة، لدليلاً قويًا على أن الإنسان ليس له إلا الله هاديًا إلى الحق ومرشدًا إلى الطريق المستقيم.

ونعود إلى تفسير الآية فنقول:

﴿قَوَّامُونَ﴾: بناء مبالغة وهو من القيام على الشىء والاستقلال بالنظر فيه وحفظه، فقيام الرجل على المرأة هو على هذا الحد، وتقتضى هذه القوامة كما قال ابن العربى فى أحكامه: أن يبذل الرجل المهر والنفقة وحسن العشرة ويحجبها ويأمرها بطاعة الله تعالى وينهى إليها شعائر الإسلام من صلاة وصيام وما وجب على المسلمين، وعليها الحفاظ لماله والإحسان إلى أهله والالتزام لأمره فى الحجبة وغيرها إلا بإذنه وقبول قوله فى الطاعات. اهـ.

ومن خلال كلام ابن العربى هذا نتبين أن القرآن رسم للمرأة منهاجًا هو غاية فى صيانتها والمحافظة عليها وإن الرجل كما هو المسئول عما تحتاج إليه من ماديات هو المسئول كذلك عما تحتاج إليه من علم صحيح وحكمة نافعة تعرف بها كيف تؤمن بالله ورسوله وتؤدى ما لله من حقوق وفرائض ومسنونات.

فليس حجبها فى البيت مدعاة للجهل ولا سببًا من أسباب الخذلان وإنما تكريم لها ورفعة لشأنها ووضع لها فى أعلى المستويات.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ الباء للسببية أى بسبب تفضيله الرجال على النساء وسبب إنفاق الرجال الأموال فى النفقة والمهور.. فهما سببان:

أحدهما: (وهبى) وهبه الله للرجل خلقًا وجبلة فهو لا يزول ولا يتغير وهو كمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوة.

والثانى: (كسبى) بكسب الرجل وعمله وتحصيله للمال وإنفاقه على الزوجة امتثالاً لأمر الله.

وبما أن القرآن لا ينسخه ناسخ إلى يوم القيامة، فهذا السبب أيضًا لا يزول ولا يحول، فقوامة الرجل على المرأة باقية ببقاء سببها إلى يوم القيامة كذلك، قال العلماء: ومن أجل هذا السبب «الوهبى» خصهم الله بالنبوة والولاية والشهادة فى مجامع القضاء ووجوب الجهاد والجمعة والتعصيب وزيادة السهم فى الميراث والاستبداد بالفراق والرجعة وعدد الأزواج وإليهم الانتساب.. إلى غير ذلك..

فالرجل فى العلاقة الزوجية هو صاحب الهيمنة والسلطان وعلى الزوجة أن تعرف ذلك تمامًا بالشرع والعقل وأن تسير على النهج لا تتعداه.

ومما يؤيد هذا الحق للرجل وتلك الهيمنة له ما روى فى سبب نزول الآية وهو أن سعد بن الربيع أحد نقباء الأنصار نشزت عليه زوجته حبيبة بنت زين بن أبى زهيد فلطمها فانطلق بها أبوها إلى رسول الله ﷺ وقال: أفرشته كريمتى فلطمها فقال: لتقتص منه فنزلت، فقال: أردنا أمرًا وأراد الله أمرًا والذى أراده الله خير، ورفع القصاص. اهـ.

فرفع الله جل جلاله القصاص فى هذا الإيذاء للزوجة من جانب الزوج حيث

إنها كانت ناشزًا.

ثم بينت الآية بعد ذلك أن صلاح الزوجات فى دينهن هو أن يكن قانتات حافظات للغيب يعنى مطيعات لأزواجهن حافظات لما يجب عليهن حفظه فى حالة غيبة أزواجهن من الفروج والبيوت والأموال.

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك وإذا أمرتها أطاعتك وإن غبت عنها حفظتك فى مالك».

وقوله: ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ الباء للسببية و(ما) موصولة والمفعول محذوف، وكذا عائد الموصول والتقدير: بالذى حفظهن الله به حين أوصى الأزواج بهن فى كتابه العزيز فى مثل قوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ [الطلاق: ٦]، وحين أمر رسوله صلوات الله عليه فقال: «استوصوا بالنساء خيرًا».

فلله ما أبدع هذا التشريع الإلهى فى حفظ المرأة وصيانتها حيث جعلها مكفولة من الرجل فى كل مطالبها وحاجاتها وليس عليها إلا أن تعرف ذلك للرجل وتقدره وتشكر الله رب العالمين الذى حباها تلك النعمة ووهبها تلك المنة وجعلها فى حرز مكين وصيانة بالغة.

ثم تنتقل الآية بعد ذلك إلى وصف العلاج الحاسم والدواء الناجع فيما عساه أن يقع بين الزوجين من النزاع.. إبقاء لذلك الرباط المقدس وحماية لهذا التآلف المبارك فيقول جل جلاله: ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾.

﴿تَخَافُونَ﴾ أى تعلمون، والنشوز هو الخروج على طاعة الرجل فيما يريده كما فى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ [البقرة: ١٨٢]، أى علم.

﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ أى خوفوهن كأن يقول لزوجته اتقى الله فى الحق الواجب لى عليك واحذرى العاقبة ويبين لها أن النشوز يسقط النفقة والقسم.

﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ أى اعتزلوهن على الفراش، وعلى هذا يكون لفظ (فى) على بابه فى الظرفية وهو أحد الوجهين فيها والثانى أنها بمعنى السبب أى اهجروهن بسبب المضاجع كما تقول فى هذه الجناية عقوبة، ويكون المعنى على

ذلك «اهجروهن بالكلام بسبب تركهن المضاجع حتى يرجعن إليها، وكونها للظرفية أظهر».

﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾، والضرب هنا ضرب التأديب غير المبرح وهو الذى لا يكسر عظمًا ولا يشين جارحة. قال عطاء: قلت لابن عباس ما الضرب غير المبرح؟

قال: بالسواك ونحوه، قال ابن العربى فى أحكامه فقوله عز وجل: ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «أيها الناس إن لكم على نسائكم حقًا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربًا غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف».

وفى هذا دليل على أن الناشز لا نفقة لها ولا كسوة، وأن الفاحشة هى البذاء وليس الزنا كما قال العلماء، ففسر النبى ﷺ الضرب وبين ألاّ يكون مبرحًا أى لا يظهر له أثر على البدن. اهـ.

وهذه الثلاث ـ أعنى العظة والهجر والضرب مراتب إذا وقعت للطاعة عند إحداها لم يتعد إلى غيرها، وإنا لندعو الدنيا كلها إلى أن تصغى إلى هذا التشريع لترى ما فيه من محاسن لن تكون إلا فى تشريع رب العالمين والذى هو بعباده رءوف رحيم. فهو يأمر للمرأة بالرزق والكسوة من جانب الرجل ثم إذا ما انحرفت عما يراد بالزوجية أمر الرجل بطرق علاج ثلاثة آخرها الضرب غير المبرح على ما سبق بيانه وتفصيله.

قال العلماء: وعليه أن يبتعد بهذا الضرب عن الوجه والمهالك كما قالوا إنه يضربها إن غلب على ظنه أن الضرب يجدى وإلا فعليه أن يصبر محتسبًا ذلك عند الله تعالى وقد قال الرسول ﷺ: إن فى الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾، فيما يراد منهن ﴿فَلا تَبْغُوا﴾ لا تطلبوا ﴿عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ أى طريقًا إلى ضربهن ظلمًا واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن «فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له» رواه الطبرانى وابن ماجه وغيرهما.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ احذروه أن يعاقبكم إن ظلمتوهن فإنه أقدر عليكم منكم على من تحت أيديكم.

وفى الحديث عن أبى مسعود قال: «كنت أضرب غلامًا لى فسمعت قائلاً يقول: اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود، فصرفت وجهى فإذا رسول الله ﷺ يقول: اعلم أبا مسعود أن الله تعالى أقدر عليك منك على هذا العبد».

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ...﴾.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ علمتم ﴿شِقَاقَ﴾ خلاف ﴿بَيْنِهِمَا﴾ أى بين المرء وزوجه وذكرهما بضميرهما وإن لم يجر ذكرهما لجرى ما يدل عليهما وهو الرجال والنساء ﴿فَابْعَثُوا﴾ أى أيها الحكام متى اشتبه عليكم حالهما إليهما لكن برضاهما ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ﴾ أى أقاربه ﴿وَحَكَمًا﴾ آخر ﴿مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أى أقاربها لينظرا فى أمرهما بعد انفراد حَكَم الزوج به وحَكَم الزوجة بها ومعرفة ما عندهما فى ذلك، فإن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للصلاح.. ثم ليعلم أن بعث الحكمين على سبيل الوجوب وكونهما من الأقارب على سبيل الندب وهما وكيلان فيشترط رضى الزوجين فى اختيارهما كما تقدم لا حكمًا من جهة الحاكم لأنهما بصدد أن يفرقا بينهما والبضع حق الزوج والمال حق الزوجة وهما رشيدان فلا يولى عليهما فى حقهما فيوكل هو حَكَمه بطلاق أو خلع.. وتوكل هى حَكَمها ببذل عوض طلاق. ويشترط فيهما إسلام وحرية وعدالة واهتداء إلى المقصود من بعثهما له وإنما اشترط فيهما ذلك مع أنهما وكيلان لتعلق وكالتهما بنظر الحاكم ويشترط كونهما ذكرين ولا يكفى حكم واحد. ثم ما تقدم من أنهما وكيلان هو مذهب الشافعى رضى الله عنه يعنى فلا يمضيان أمرًا إلا بعد موافقة الزوجين ورضاهما على ما تقدم توضيحه وبيانه. ومذهب مالك رضى الله عنه أنهما حكمان حقيقة فهما ينظران فى كل شىء دون رضى الزوجين ويحملان على الظالم ويمضيان ما رأياه من بقاء أو فراق.. ولكل وجهة ليس هذا محل بسطها.

وقوله: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا﴾ يعود ضمير التثنية على الحكمين أى إذا نصحا وقصدا الخير بورك فى وساطتهما. وقيل الضمير الأول للزوجين والثانى للحكمين أى إن يرد الزوجان إصلاحًا يوفق الله بين الحكمين فلا يختلفان بل يعملان معًا فى سبيل الإصلاح وقيل الضميران للحكمين أى إن قصدا الإصلاح يوفق الله بينهما لتتفق كلمتهما ويحصل مقصودهما وقيل الضميران للزوجين أى إن أرادا الإصلاح

وزوال الشقاق أوقع الله بينهما الألفة والوفاق. وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتحراه أصلح الله تعالى مبتغاه.

هذا وإن لم يتم أمر الحكمين بأن تعذر إرسالهما أو لم يتفقا على شيء، أدب الحاكم الظالم منهما، واستوفى للمظلوم حقه.

وقوله جل شأنه ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً** ﴾ بكل شيء ﴿ **خَبِيراً** ﴾ بالبواطن كالظواهر فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق قال تعالى ﴿ **لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وبعد ـ فهذه معالم الإسلام، فعلى المسلمين أن يتبينوها، وتلكم هى حقائق القرآن فعلى المسلمين فى كل بقاع الأرض أن يعملوا بها ويتفهموها إن أرادوا لأنفسهم وللبشرية جمعاء سعادة شاملة وراحة كاملة وخروجًا من الأزمات والمشكلات.

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

* * *

النفس المطمئنة

النفس المطمئنة هى المؤمنة الموقنة غاية اليقين.. ألا ترى قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠] فالاطمئنان درجة زائدة على الإيمان، والمطمئن هو المنخفض من الأرض يعنى فهى منخفضة بتواضعها وإنكسارها إلى الله تعالى. وقد كان جزاء هذه النفس المطمئنة الراضية عن الله فى كل ما يفعل بها ويريد لها ـ أن الله رضى عنها وتفضل عليها بعظيم جوده وواسع كرمه قال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِى فِى عِبَادِى ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

قال ابن عطاء فى كتابه «التنوير فى إسقاط التدبير»: رب صاحب ورد عطله عن ورده أو الحضور فيه مع ربه ـ هم التدبير فى المعيشة وغيرها من مصالح النفس، وأنواع وساوس الشيطان فى التدبير لا تنحصر، ومتى أعطاه الله سبحانه الفهم عنه عرفه كيف يصنع... فأى عبد توفر عقله واتسع نوره نزلت عليه السكينة من ربه فسكنت نفسه عن الاضطراب ووثقت بولى الأسباب فكانت مطمئنة أى خامدة ساكنة مستسلمة لأحكام الله ثابتة لأقداره وحدوده بتأييده وأنواره فاطمأنت لمولاها لعلمها بأنه يراها ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] فاستحقت أن يقال لها ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ وفى الآية خصائص عظيمة لها منها ترفيع شأنها بتزكيتها، ومدحها بالطمأنينة ثناء منه سبحانه عليه بالاستسلام إليه والتوكل عليه فى قوله ﴿رَاضِيَةً﴾ أى عابدة لله فى الدنيا بأحكامه ومرضية فى الآخرة بجوده وإنعامه. وفى ذلك إشارة للعبد أنه لا يحصل له أن يكون مرضيًا عند الله فى الآخرة حتى يكون راضيًا عن الله فى الدنيا... أى بتصرف.

وما أبدع قول ابن عطاء فيما تقدم «ومتى أعطاك الله سبحانه الفهم عنه عرفك كيف تصنع» يعنى أن المؤمن إذا منحه الله فقه كتابه وسنة رسول الله ﷺ عرف كيف يكون به مستعينًا فى حالك الظلمات بضياء القرآن، ومستعينًا وقت الخطوب المدلهمة بأنوار شريعة الإسلام فهو عند الرزايا ثابت لا يتزعزع، قوى لا يضعف،

مهتد بقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١]، وهو عند النعمة والمنة غير فرح ولا فخور، ولا جبار، ولا متكبر، لعلمه وليقينه أن النعمة منه جل جلاله وعظم شأنه، فهو الذى يبقيها وهو الذى يأخذها مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فما عليه إلا أن يشكر ربه كما أمر ويعبده كما طلب.

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ هو أن يجعل فى قلبه اليقين حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه أى فيسلم لقضاء الله تعالى وقدره. وقال الكلبى: وهو إذا ابتلى صبر، وإذا انعم عليه شكر، وإذا ظلم غفر. وقال بعضهم: ومن صح إيمانه يهد الله قلبه لاتباع السنة.

هذا وقد تأكد هذا المعنى مع توضيح وتفصيل فى قوله تعالى فى سورة الحديد: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣] فقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ﴾ أى من قحط المطر، وقلة النبات، ونقص الثمرات، وغلاء الأسعار، وتتابع الحوائج وغير ذلك، ﴿وَلا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ أى من الأمراض، والفقر، وذهاب الأولاد، وضيق العيش، وغير ذلك ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ أى مكتوبة فى اللوح المحفوظ مثبتة فى علم الله تعالى ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ أى نخلق ونوجد ونقدر المصيبة فى الأرض والأنفس، وهذا دليل على اكتساب العباد بخلقه سبحانه وتعالى وتقديره ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أى العلم الجليل، وهو علمه بالشىء وكتبه له على تفاصيله قبل أن يخلقه: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ أى لما له من الإحاطة بصفات الكمال ﴿يَسِيرٌ﴾ لأن علمه محيط بكل شىء فقدرته شاملة لا يعجزها شىء.

ثم بين ثمرة إعلامه بذلك بقوله تعالى ﴿لِكَيْلا﴾ أى علمناكم بناء على ما لنا من العظمة أن قد فرغنا من التقدير فلا يتصور فيه تقديم ولا تأخير ولا تبديل ولا تغيير، لا الحزن يدفعه ولا السرور يجلبه ويجمعه... كما قال رسول الله ﷺ: يا معاذ «ليقل همك ما قدر يكن..» لأجل أن لا ﴿تَأْسَوْا﴾ أى تحزنوا حزنًا كبيرًا زائدًا على ما فى أصل الجبلة فربما جر ذلك إلى السخط وعدم الرضا بالقضاء

﴿**عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ**﴾ أى من المحبوبات الدنيوية ﴿**وَلَا تَفْرَحُوا**﴾ أى تسروا سرورًا يوصلكم إلى البطر بالتمادى على ما فى أصل الجبلة.

وفى قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ ما يشعر أن قوله: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ**﴾ معناه: ما حدث من حادث خير وشر حملاً للفظ ﴿**أَصَابَ**﴾ على معناه اللغوى دون العرف المخصوص بالشر، أو تكون الآية ﴿**مَا أَصَابَ**﴾ من باب الاكتفاء أعنى حذف المقابل كأنه قال بعد قوله تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ**﴾ قال: وما آتاكم من نعمة، وبهذا التقت الغاية مع المغيى وارتبط آخر الكلام بأوله.

قال جعفر الصادق رضى الله عنه: «مالك تأسف على مفقود ولا يرده عليك الموت» ومالك تفرح بموجود ولا يتركه فى يدك الموت».

قال بعض المفسرين: «ولقد عز الله تعالى المؤمنين رحمة بهم فى مصائبهم وزهدهم فى رغائبهم، بأن أسفهم على فوت المطلوب لا يعيده، وفرحهم بحصول المحبوب لا يفيده، وبأن ذلك لا مطمح فى بقائه إلا بادخاره عند الله وذلك أن يقول عند المصيبة «قدر الله وما شاء فعل» ويصيح، عند النعمة يقول: هكذا قضى ربى وما أدرى مآله، هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر فلا يزال خائفًا من النعمة قائلاً فى الحالين ما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن.

والقصد من هذا أن يكون مشغولاً بذكر ربه فى كلتا الحالتين، وقيمة الرجال إنما تعرف بالواردات المغيرة فمن لم يتغير بالمدار ولم يتأثر بالمسار فهو سيد وقته. اهـ.

وقيل: ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبرًا وغنيمته شكرًا. .والحزن والفرح المنهى عنهما اللذان تتعدى فيهما إلى ما لا يجوز.

هذا وقد بينت الأحاديث الصحيحة الحكمة فى ابتلاء الإنسان بما يصيبه من الرزايا ففى صحيح مسلم عن أبى سعيد وأبى هريرة أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «ما يصيب المسلم من وصب، ولا نصب، ولا سقم، ولا حزن، حتى الهم يهمه إلا كفر به من سيئاته».

وفيه أيضًا عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتب له بها درجة، ومحيت عنه بها خطيئة» وفيه كذلك عن أبى هريرة رضى الله عنه قال لما نزلت «من يعمل سوءًا يجز به» بلغت من المسلمين مبلغًا شديدًا فقال رسول الله ﷺ «سددوا وقاربوا ففى كل ما يصاب به المسلم

كفارة، حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها».

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ يدل على أن الفرح المنهى عنه هو ما أدى إلى الاختيال والفخر، وأما الفرح بنعم الله تعالى المقترن بالشكر والتواضع فإنه لا يستطيع أحد دفعه عن نفسه ولا حرج فيه، ومعنى ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ﴾ أى لا يفعل فعل المحب بأن يكرم المختال ويحسن إليه.

والاختيال هو التكبر على خلق الله تعالى نظرًا لوجود نعم الدنيا والترفع عنهم وعدم إعطائهم الحقوق التى لهم، بمعنى لا يسلم عليهم، ولا يعود مرضاهم، ولا يشيع جنائزهم، ولا يواسى الضعيف منهم ونحو ذلك، والفخور: المتعاظم بما عنده من الدنيا كالمال والجاه، فهو يرى فى نفسه أنه أعلى الناس شأنًا وأرفعهم مكانة ومنزلة وهو فى ذلك واهم ولا شك، قاصر ولا ريب.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ [الحديد:٢٤] بدل من كل مختال فخور، فإن المختال بالمال يضن به غالبًا ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾ أى كل من يعرفونه بالبخل إرادة أن يكون لهم رفقاء يعملون بأعمالهم الخبيثة وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أى ومن يعرض عن الإنفاق فإن الله غنى عن ماله وعن إنفاقه وكل شىء مفتقر إليه وهو مستحق للحمد سواء حمده الحامدون أم لا؟

فالنفس المطمئنة مشروحة الصدر دائمًا أبدًا وعلى كل حال فى السراء والضراء، ويقينها أن الله واحد رحمن رحيم، قادر حكيم وسع كل شىء علمًا ولهذا يقول الله تعالى فى سورة الزمر: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَٰئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢] فقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ﴾ فى الكلام محذوف يدل عليه الظاهر تقديره: أفمن شرح الله صدره كالمعرض عن أمر الله، وشرح الصدر استعارة لتحصيله للنظر الجيد، والإيمان بالله، والنور هداية الله تعالى وهى أشبه شىء بالضوء.

وقال ابن مسعود: قلنا: يا رسول الله: كيف انشراح الصدر؟ قال إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح، قلنا يا رسول الله وما علامة ذلك؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والتأهب للموت قبل مثول الموت.

والقسوة شدة القلب وهى مأخوذة من قسوة الحجر شبه قلب الكافر به فى صلابته وقلة انفعاله للوعظ.

وروى الترمذى عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله تعالى القلب القاسى» قال الترمذى هذا حديث حسن غريب، وقال مالك ما أضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلبه.

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ﴿مِّن﴾ هنا مرادفة (عن) وقيل: هى للتعليل أى من أجل ذكر الله تعالى لأنه إذا ذكر الله تعالى قست قلوبهم والعياذ بالله، وقيل: هى للابتداء.

قال الفخر: واعلم أن ذكر الله تعالى سبب لحصول النور والهداية وزيادة الاطمئنان فى النفوس الطاهرة الروحانية وقد يوجب القسوة والبعد عن الحق فى النفوس الخبيثة الشيطانية فإذا عرفت هذا فنقول إن رأس الأدوية التى تفيد الصحة الروحانية وتثبتها هو ذكر الله تعالى فإذا اتفق لبعض النفوس أن صار ذكر الله تعالى سببًا لازدياد مرضها كان مرض ذلك النفوس مرضًا لا يرجى زواله ولا يتوقع علاجه وكانت فى نهاية الشر والرداءة فلهذا المعنى قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ اهـ.

ومن أجل ذلك طلب موسى عليه السلام من الله تعالى أن يشرح له صدره فيما حكاه الله عنه فى سورة طه ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥] وامتن الله تعالى على نبيه محمد ﷺ بأن أعطاه شرح الصدر فى قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١].

والحق أن شرح الصدر أمنية الأمانى وغاية الغايات فليس لعبد ما دام فى هذه الحياة إلا أن يشتغل بمعرفة ربه وتوحيده ناهجًا نهج القرآن الكريم والسنة الصحيحة بعبادة ربه، فاليوم عمل بلا حساب وغدًا حساب بلا عمل كما ورد فى بعض الآثار «وليس بعد الموت من مستعتب» أى طالب عتبى ورضا «وليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار» كما ورد به الأثر أيضًا.

قيل لرابعة العدوية رضى الله عنها: لقد غلا السعر بالبصرة فقالت: والله لو أصبحت الحبة بدينار ما باليت، علينا أن نعبده كما أمرنا وهو يرزقنا كما وعدنا.

تلكم هى الحقيقة الخالدة وهذا هو الحق الواضح الذى لا غموض فيه والله يهدى من يشاء إلى الصراط المستقيم.

المبحث الرابع

الدعوة إلى الله

- حقيقة الدعوة إلى الله.
- نموذج من الدعوة إلى الله.
- مراتب الدعوة إلى الله.
- شرط الداعي إلى الله.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

حقيقة الدعوة إلى الله

هى الدعوة إلى توحيده سبحانه وإلى ما جاء به القرآن الكريم من تشريعات ونظم وصلت الناس بربهم ونظمت صلتهم ببعضهم. ، الأمر الذى لا تحيا دنيا الناس إلا به ولا يستقر لها وجود إلا إذا سارت على نهجه ومقتضاه، هذا إلى جانب الحقائق العظيمة التى يجب الإيمان بها فى الحياة الثانية التى لا تنتهى ولا تزول.

نعم إن فى الدعوة إلى الله أمانًا للناس من المخاوف وتخليصًا لهم من العذاب الأبدى وإدخالاً لهم فى النعيم المقيم. . لذلك رأيناها تسمو فوق كل اعتبار وتتخطى كل الحواجز وتتجاوز كل التقديرات فلا حرمة الأبوة تقف أمامها ولا شفقة البنوة تحول بينها ولا رهبة السلطان وهيبة الملك تنال منها أدنى منال. . فهذا الخليل إبراهيم عليه السلام يقول لأبيه ـ كما يخبرنا القرآن الكريم: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥].

وهذا هو نوح عليه الصلاة والسلام يقول لابنه ـ كما حكى الله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

وهذا موسى عليه السلام يأمره الله عز وجل بالذهاب إلى فرعون: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٧].

كذلك وجدنا يوسف الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ﷺ يقول وهو فى أشد أوقات المحنة وبين جدران السجن: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

* * *

نموذج من الدعوة إلى الله

لقد رأينا من الدعاة من لا يرهب سطوة الملك فيستجيب لدواعى الإيمان ويدافع عن الدعوة بالحجة القاطعة والمنطق الفصل كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِى الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٨، ٢٩].

إن مؤمن آل فرعون داع قوى الحجة كامل اليقين ذو بصيرة وعلم بما يقول.

تكلم مؤمن آل فرعون بهذا القول فى مجلس من مجالس الكفر فأثنى الله تعالى عليه وشرفه بالذكر وخلد ثناءه فى الأمم حيث جعله فى القرآن يتلى على سمع الزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وفى قوله سبحانه: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ﴾.

قال العلماء بعض هنا بمعنى كل، وقال آخرون هو إلزام الحجة بأيسر ما فى الأمر وليس فيه نفى إصابة الكل، ويرى البعض أن المعنى يصبكم القسم الواحد مما يعد به لأنه عليه السلام وعدهم إن آمنوا بالنعيم وإن كفروا بالعذاب فإن كان صادقًا فالعذاب بعض ما وعده به.

ثم إننا نرى أنه قد أدرج نفسه فيهم عند ذكر الشر فى قوله ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾ بعد إفراده لهم بالملك أولاً، وذلك إبعادًا للتهمة عن نفسه وحثًا لهم على قبول الموعظة الحسنة والنصيحة... ثم ذكر الله تعالى أقوال هذا المؤمن فى آيات متتاليات يخوف فيها قومه بما حل بالأمم المكذبة قبلهم ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [غافر: ٣١] وفى هذا دليل صريح على أن الداعى لابد له من أن يعلم تاريخ الأمم التى عارضت الحق وناصبته العداء وأن الله عز وجل لم يفلتهم بل أخذهم أخذ عزيز مقتدر مهما كانوا متحصنين بالقوة ومهما كانوا فى منعة الحصون والجنود، وذلك لأنهم أعداء الإنسانية وشر ما ابتليت بهم الدنيا فإهلاكم هو عين

الحكمة والصواب ليكونوا عبرة لغيرهم وعظة لمن سواهم والله يهدى من يشاء بفضله.

كما أنه خوفهم يوم القيامة وما فيه من أهوال عظام وخطوب جسام وأن ليس فى هذا اليوم من عاصم يعصمهم من الله ويمنعهم عذابه.. كما ذكرهم بأن تكذيبهم موسى عليه السلام ليس غريبًا عليهم ولا بدعًا فيهم فقد كذبوا يوسف من قبل وشكوا فى أمره وارتابوا فى نبوته.. يعنى أن ذلك دأبهم من قديم وتلك عادة استأصلت فى نفوسهم، ويا خسارة من تكبر وتجبر حتى طبع الله على قلبه وأضله وأعمى بصره.

ثم إن هذا المؤمن زهدهم فى الدنيا وحذرهم من الانهماك فيها ورغبهم فى الآخرة وحضهم على العمل لها بقوله فيما حكى الله تعالى عنه ﴿**يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ**﴾ [غافر:٣٩] فقوله ﴿**مَتَاعٌ**﴾ أى شيء يتمتع به قليلاً لا يستحق أن تصرف إليه العناية ولا أن تتجه النية له، على أن بعض العلماء قال إن قوله ﴿**مَتَاعٌ**﴾ إشارة إلى أنها جيفة، إذ الجيفة فى اللغة من جملة مدلولات المتاع فلا يتناول منها إلا كما يتناول المضطر من الجيفة لأنها دار الزوال والتزود والارتحال، والإخلاد إليها هو أصل الشر كله ومنه يتشعب جميع ما يؤدى إلى سخط الله تعالى.

وقوله ﴿**وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ**﴾ أى التى لا تحول منها أصلا لأنها الوطن المستقر، قال بعض العارفين لو كانت الدنيا ذهبًا فانيًا والآخرة خزفًا باقيًا لكانت الآخرة خيرًا من الدنيا فكيف والدنيا خزف فان والآخرة ذهب باق بل أشرف وأحسن، وكما أن النعيم فيها دائم فكذلك العذاب فكان الترغيب فى النعيم السرمدى والترهيب من العذاب الأبدى من أعظم وجوه الترغيب والترهيب.

ثم بين لهم سعة فضل الله وأنه لا حد له، وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه سبحانه يضاعف الحسنات إلى ما يقتضيه كرمه وإحسانه وأنه فى جانب الحسنات يعامل المؤمن بالفضل العميق والكرم المتزايد وفى جانب السيئات فإنه سبحانه يعامل الخلق بالعدل والحساب الدقيق ﴿**وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾ [الكهف:٤٩] وهذا ما صرح به قوله سبحانه: ﴿**مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ**

أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

ومعنى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أن ما فى الجنة من النعيم لا يدخل فى دائرة التقديرات ولا يأتى عليه الحصر فإن أدنى أهلها منزلة كما قاله العلماء لو أضاف[١] كل أهل الأرض لكفاهم من غير أن ينقص ملكه شيئًا.. قال الإمام الغزالى: من أراد أن يدخل الجنة بغير حساب فليستغرق أوقاته فى التلاوة والذكر والتفكير فى حسن المثاب، ومن أراد أن ترجح كفة حسناته وتثقل موازين خيراته فليستوعب فى الطاعة أكثر أوقاته فإن خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا فأمره فى خطر، لكن الرجاء غير منقطع والعفو من كرم الله منتظر».

ومعنى كلام الغزالى إلى أن الناس فيما أراده الله لهم ثلاثة أصناف: أولاً: صنف استغرق أوقاته كلها فى الطاعات. ثانيًا: صنف استغرق معظم أوقاته فيها. ثالثًا: صنف خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا. فالصنف الأول يدخل الجنة بغير حساب والثانى بحساب ولكن لا يعذب بالنار والثالث فأمره فى خطر...

وهذا كله غير معنى قوله تعالى ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فإنه واضح أن الرزق لكثرته لا يدخل تحت الحصر، لا أن دخول الجنة بغير حساب كما هو معنى كلام الإمام الغزالى فإن صحيح الأحاديث وقواعد الشريعة وأصولها تنص على كلام الغزالى وتؤيده، ولنكتف من كلام مؤمن آل فرعون بهذا القدر.

* * *

---

(١) أى لو نزلوا عليه ضيوفًا.

مراتب الدعوة

وهو ما يعطيه صريح قوله تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل: ١٢٥] نزلت هذه الآية بمكة وقد أمر فيها الرسول ﷺ أن يدعو إلى دين الله سبحانه وشرعه على وفق هذه المراتب الثلاث.. وهكذا ينبغى أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة... فالحكمة فى هذه الآية الكريمة معناها المعاملة المحكمة وذلك يكون بالدليل الواضح المزيل للشبهة «والموعظة الحسنة» أى بالدعاء إلى الله تعالى بالترغيب والترهيب بالخطابات المتقنة والعبارات النافعة.

والأولى لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق، والثانية لدعوة عوامهم ﴿**وَجَادِلْهُم**﴾ أى وجادل معانديهم ﴿**بِالَّتِي**﴾ أى المجادلة التى ﴿**هِيَ أَحْسَنُ**﴾ كالدعاء إلى الله تعالى بآياته والدعاء إلى حججه بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير غلظ ولا تعسف فإن ذلك أنفع فى تسكين لهبهم وتبيين شبههم، وبيان ذلك وتوضيحه أن الناس خلقوا وجعلوا على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: العلماء الكاملون:

وهم أصحاب العلوم الصحيحة والبصائر الخيرة الذين يطلبون معرفة الأشياء على حقائقها.. فهؤلاء هم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ**﴾ أى ادعهم بالدلائل القطعية اليقينية حتى يعلموا الأشياء بحقائقها وينفعوا الناس.. وهم خواص العلماء كالصحابة وغيرهم.

القسم الثانى: أصحاب الفطرة السليمة والخلقة الأصيلة:

وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حد الكمال ولم ينزلوا إلى حضيض النقصان فهم أوسط الأقسام وهم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿**وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾ أى ادعهم بالموعظة الحسنة.

القسم الثالث: أصحاب جدال وخصام ومعاندة:

وهؤلاء المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ أى حتى ينقادوا

إلى الحق ويرجعوا إليه.

وأما قوله سبحانه فى تمام الآية: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِه وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ أى فهو سبحانه عليم بالفريقين فمن كان فيه خير كفاه الوعظ والنصيحة اليسيرة ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل.. يعنى فما على الداعى حينئذ إلا إبلاغ الدعوة وأما حصول الهداية والضلالة والمجازاة عليهما فليس ذلك لأحد، إنما مرده إلى الله العليم الخبير بخلقه، يفعل بهم ما يشاء ويقضى بما يريد سبحانه لا إله غيره ولا رب سواه.

* * *

شرط الداعى

أول ما ينبغى أن يتحلى به الداعى هو أن يكون على بصيرة تامة مما يقول، ويقين كامل بما يدعو إليه، قال تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ [يوسف: ١٠٨] فقوله ﴿**وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ يدل على أن المؤمنين مكلفون بالدعوة إلى نهاية هذه الحياة فعلى كل مؤمن يدعو إلى الله أن يذكر الحجة على توحيد المولى جل شأنه ويجيب على كل شبهة تعترض ذلك وأن يقيم شريعة الإسلام.. كل ذلك فى حدود طاقته وقدرته بالشروط السابقة.. والعلماء وهم ورثة الأنبياء أول الناس امتثالاً لهذا الشرط وهم كذلك أقدر الناس على القيام بهذه المهمة وأحقهم بالعمل لها، وعليهم تقع التبعة والمسئولية أولاً وإلا كانت دعوتهم محض غرور وخداع.

ثم بعد الشرط الأول تكون الاستقامة أعنى امتثال الأمر واجتناب النهى فلا يأمر بأمر ثم يخالفه، وينهى عن شىء ثم يأتيه مع محافظة تامة على مروءته وكرامته فيما يكون بين أمثاله قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [فصلت: ٣٣] ومعنى قوله: ﴿**وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ أنه فخور بالإسلام معتد بالقرآن معتقد أنه على الحقيقة التى تصلح عليها الدنيا وينال بها السعادة الأبدية فى الآخرة.. وفى ذلك قطع لأطماع المفسدين وإعلان صريح أن الحق فى جانب من آمن بالقرآن ودعا إليه دون سائر الملل والأديان.. ويؤيد هذا ويوضحه قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٢، ٣] فقد قال العلماء إن حكم هذه الآية باق غابر الدهر وكل من يقول مالا يفعل فهو ممقوت الكلام.. والمقت هو البغض من أجل ذنب أو ريبة أو دناءة يفعلها الممقوت.

وقول المرء ما لا يفعل يوجب مقت الله تعالى، ولذلك فر كثير من العلماء عن الوعظ والتذكير وآثروا السكوت. قال القرطبى: ثلاث آيات منعتنى أن أقضى[1]

(١) بمعنى يحكم بينهم.

على الناس: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢].

ويشهد لذلك ما جاء فى الإسراء عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام أتيت ليلة أسرى بى على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت، قلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء علماء أمتك الذين يقولون ولا يفعلون ويقرءون كتاب الله تعالى ولا يعملون به، قال بعض العلماء: وهذا بحسب فقه الحال إن وجد الإنسان من يكفيه هذه المئونة فى وقته فقد يسعه السكوت وإلا فلا يسعه.

ويروى عن الأصمعى قال: بلغنى أن بعض الحكماء كان يقول إنى لأعظكم وإنى لكثير الذنوب ولو أن أحدًا لا يعظ أخاه حتى يحكم أمر نفسه لترك الأمر بالخير واقتصر على الشر ولكن محادثة الإخوان حياة القلوب وجلاء النفوس وتذكير النسيان، وعن ابن حازم قال إنى لأعظ الناس وما أنا بموضع للوعظ ولكن أريد به النفس، وجاء عن الحسن أنه قال لمطرف: عِظ أصحابك فقال إنى أخاف أن أقول ما لا أفعل فقال رحمك الله وأينا يفعل ما يقول، ودَّ الشيطان أنه لو ظفر منكم بهذه فلم يأمر أحد منكم بمعروف ولم ينه عن منكر.

هذا ويضاف إلى شرط الداعى خبرة تامة بما يلائم النفوس ويوافق الطباع، وتفرس صادق يهتدى به إلى ما يحيى القلوب ويغذى العقول شأنه فى ذلك شأن الطبيب الماهر الذى يتبين الداء فيصف له أنجع الدواء.

جاء رجل إلى ابن عباس رضى الله عنهما يسأل هل للقاتل توبة فقال له: لا، ثم جاءه آخر فسأله نفس السؤال فقال له: نعم، فقيل له فى ذلك فقال: رأيت فى الرجل الأول تمردًا ورغبة فى المعصية فأجبته بـ«لا»، ورأيت فى الثانى ندمًا على المعصية ورغبة فى الإقلاع عنها فأجبته بـ«نعم».

هذا إلى جانب معرفته بأساليب الكلام وفنون القول مما لا يخرج به إلى الإطالة المملة والزين اللفظى الممقوت.

* * *

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] صدق الله العظيم

قال بعض المفسرين: أمر الله تعالى الأمة بأن يكون منها علماء يفعلون هذه الأفعال على وجوهها ويحفظون قوانينها ويكون سائر الأمة متبعين لأولئك، إذ هذه الأفعال لا تكون إلا بعلم واسع، وقد علم الله سبحانه، أن الكل لا يكونون علماء وعلى هذا «من» للتبعيض والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية لأنه لا يتأهل له إلا من علم المعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر فى إقامته وكيف يباشره فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وقد يغلظ فى موضع اللين ويلين فى موضع الغلظة، وعلى هذا فالمخاطب بهذا الفرض الكفائى الكل على الأصح ويسقط بفعل البعض الإثم عن الباقين وهكذا كل ما هو فرض كفاية فإن تركوه أصلاً أثموا جميعًا.

وقيل إن (من) للتبيين بمعنى وكونوا أمة تأمرون بالمعروف كقوله سبحانه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ... ﴾ [آل عمران: ١١٠] والمعنى على ذلك أمر الأمة بأن تدعو جميع العالم إلى الخير فتدعو الكفار إلى الإيمان، وتدعو العصاة إلى الطاعة، ويكون كل واحد فى هذه الأمة من تلك الأمور على منزلة من العلم والقدوة.

قال بعض العلماء: الناس فى الأمر بالمعروف وتغيير المنكر على مراتب ففرض العلماء فيه تنبيه الولاة وحملهم على جادة العلم، وفرض الولاة تغييره بقوتهم وسلطانهم، وفرض سائر الناس رفعه إلى الولاة والحكام بعد النهى عنه قولاً. وهذا فى المنكر الذى له دوام، أما إن رأى أحد نازلة بديهية من المنكر كالسلب والزنا ونحوه فيغيرها بنفسه حسب الحال والقدرة، ويحسن أن يثابر المؤمن على تغيير المنكر وإن ناله بعض الأذى كما يشير إلى ذلك قوله تعالى حكاية عن لقمان لابنه: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ [لقمان: ١٧].

هذا وليعلم أن الأمر بالمعروف تابع للمأمور به إن كان واجبًا فواجب، وإن كان مندوبًا فمندوب وأما النهى عن المنكر أى الحرام فواجب كله لأن جميع المنكر تركه واجب لاتصافه بالقبح، والأظهر أن العاصى يجب عليه أن ينهى عما يرتكبه لأنه يجب عليه تركه وإنكاره فلا يسقط بترك أحدهما سقوط الآخر.. وعن بعض السلف: «مروا بالخير وإن لم تفعلوا».

وإنه قيل: إن الدعاء للخير فى قوله ﴿**يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ**﴾ عام فى التكليف من الأفعال والمتروك فهو شامل للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فما فائدة ذكر ذلك؟ أجيب بأنه من عطف الخاص على العام إيذانًا بفضله كقوله سبحانه: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ**﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وجملة القول فى هذا أن كلاً من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر متعين متى رُجى القبول أو رُجى رد الظالم ولو بعنف ما لم يخف الآمر ضررًا يلحقه فى خاصته، أو فتنة يدخلها على المسلمين، إما بشق عصا وإما بضرر يلحق طائفة من الناس فإذا خيف ذلك فلا عليه شىء.. ثم إنه يجب على الداعى أن يدفع بالأخف كدفع الصائل.

وقد ذكر المفسرون عند قوله تعالى: ﴿**وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ أحاديث تتضمن فوزهم وظفرهم بالمطلوب وحسن المآب، وتحذر من الإهمال والتهاون فى هذا الركن العظيم.

منها على سبيل المثال: عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليؤتين برجال يوم القيامة ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء لمنازلهم من الله يكونون على منابر من نور، قالوا ومن هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين يحببون الله إلى الناس ويحببون الناس إلى الله ويمشون فى الأرض نصحًا، قلنا يا رسول الله هذا يحببون الله إلى الناس فكيف يحببون الناس إلى الله؟ قال: «يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر فإذا أطاعوا أحبهم الله تعالى».

وروى الإمام أحمد أن النبى ﷺ سُئل وهو على المنبر: من خير الناس؟ قال: «آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم».

وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال: «والذى نفسى بيده لتأمرون بالمعروف

ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابًا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم» وقال ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا؟ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا».

وأما قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ [المائدة: ١٠٥]. فقد ورد فى الأثر ما بين وجهتها والمحمل فيها ومتى يكون مضمونها ومعناها.

قال أبو ثعلبة الخشنى: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: «ائتمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فإذا رأيت دنيا مؤثرة وشُحًا مطاعًا وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك، وذر عوامهم، فإن وراءكم أيامًا أجر العامل فيها كأجر خمسين منكم».

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن هذه الآية قرئت عنده فقال: إن هذا ليس بزمانها لأنها اليوم مقبولة ولكن يوشك أن يأتى زمان تأمرون فلا يقبل منكم وحينئذ فعليكم أنفسكم.

فالآية على هذا تسلية لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فلا يقبل منه.

هذا ومما يتصل بموضوعنا اتصالاً وثيقًا قوله تعالى فى سورة هود: ﴿**فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ [هود: ١١٦، ١١٧] فنقول: لما بين الله تعالى أن المتقدمين حل بهم عذاب الاستئصال حسبما يقتضيه قوله سبحانه قبل ذلك: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ [هود: ١٠٢] بين أن السبب فى ذلك أمران: الأول: أنه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد والثانى: انغماسهم فى الترف والنعيم الذى نعموا به وإعراضهم عما وراء ذلك من الأوامر والحقائق الشرعية، فقوله تعالى: ﴿**فَلَوْلا**﴾ أى فهلا ﴿**كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ من الأمم الماضية

﴿**أُولُوا بَقِيَّةٍ**﴾ أى أصحاب رأى وخير وفضل وسمى ذلك بقية لأن الرجل يستبقى مما يخرجه أجوده وأفضله فصار مثلاً فى الجودة والفضل، ويقال فلان من بقية القوم أى من خيارهم، أو لأن الشرائع والدول ونحوها تكون قوتها فى ابتدائها وأول أمرها ثم يعتريها الضعف بعد ذلك فمن ثبت فى وقت الضعف فهو بقية الصدر الأول. ويجوز أن تكون البقية بمعنى التقوى كالتقية بمعنى التقوى أى فهلا كان منهم ذوو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وعقابه.

وقوله تعالى: ﴿**إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ**﴾ استثناء منقطع معناه ولكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد، وسائرهم تاركون للنهى.

والسبب الثانى لنزول عذاب الاستئصال قوله تعالى: ﴿**وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ**﴾ من الشهوات واهتموا بتحصيلها وأعرضوا عما وراء ذلك ﴿**وَكَانُوا مُجْرِمِينَ**﴾ أى كافرين ثم بين الله تعالى أنه ما أهلك أهل القرى بظلم بقوله: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ**﴾، أى بشرك ﴿**وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ فيما بينهم والمعنى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين فى المعاملات فيما بينهم.

والحال أن عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين الشرك بل ينزل إذا أساءوا المعاملات وسعوا فى الإيذاء والظلم ولهذا قيل إن حقوق الله مبناها على المسامحة يعنى فلا يعذب عليها عذاب الاستئصال، وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح ويقال فى الأثر: الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم، وإنما نزل على قوم نوح وهود وصالح عذاب الاستئصال لما حكى الله عنهم من إيذاء الخلق وظلمهم.

هذا وللإمام الغزالى كلام فى موضوعنا ما نصه: «حاصل المقصود من بعثة النبيين عليهم الصلاة والسلام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولو طوى بساطه وأهمل عمله وعلمه لاضمحلت الديانة وفشت الضلالة وشاع الفساد وهلك العباد وإن لم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد وقد كان الذى خفنا أن يكون، إنا لله وإنا إليه راجعون إذ قد درس من هذا القطب علمه وعمله وانمحت بالكلية حقيقته ورسمه، واستولت على النفوس مداهنة الخلق، وانمحت عنها مراقبة الخالق

واسترسل الناس فى اتباع الشهوات استرسال البهائم، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه فى الله لومة لائم».

فليُتأمل هذا الكلام ولينظر إليه بعين الاعتبار خصوصًا وقد مضى عليه من الزمن ما يقرب من تسعمائة سنة والله يهدينا جميعًا إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

* * *

المحقق فى سطور

الدكتور محمد سيد أحمد المسير

أستاذ العقيدة والفلسفة - كلية أصول الدين - جامعة الأزهر

- حصل على الدكتوراه فى العقيدة والفلسفة بمرتبة الشرف الأولى من جامعة الأزهر ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- عمل أستاذًا مشاركًا ثم رئيسًا لقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية فى كلية التربية - جامعة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة ١٩٨٣ - ١٩٨٧م.
- عمل مستشارًا لوزير الأوقاف المصرى ١٩٩٢م.
- زار دول الكومنولث الإسلامية المنبثقة عن الاتحاد السوفيتى السابق ١٩٩٢م.
- أُعير أستاذًا فى كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٩٩٣ - ١٩٩٨م.
- شارك فى لجان الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية.
- شارك فى عضوية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف.
- عضو الجمعية الفلسفية المصرية.
- يشارك فى الإعلام المقروء والمسموع والمرئى فى مصر والعالم الإسلامى.
- شارك فى كثير من المؤتمرات والملتقيات الفكرية المحلية والعالمية فى كل من:

القاهرة - مكة المكرمة - مسقط - أبو ظبى - بغداد - الكويت - طهران - موسكو.

* * *

كتب للمحقق

• فى العقيدة:

١ ـ التمهيد فى دراسة العقيدة الإسلامية.
٢ ـ الإلهيات فى العقيدة الإسلامية.
٣ ـ الرسالة والرسل فى العقيدة الإسلامية.
٤ ـ النبوة المحمدية: الوحى ـ المعجزة ـ العالمية.
٥ ـ الشفاعة فى الإسلام.
٦ ـ تيسير العقيدة بشرح الخريدة.

• فى الفلسفة والأخلاق:

٧ ـ الروح فى دراسات المتكلمين والفلاسفة.
٨ ـ المجتمع المثالى فى الفكر الفلسفى وموقف الإسلام منه.
٩ ـ قضايا إنسانية فى الفكر الدينى والفلسفى.
١٠ ـ قيم أخلاقية من القرآن والسنة.
١١ ـ قضايا الفكر الإسلامى المعاصر.
١٢ ـ زلزال الحادى عشر من سبتمبر وتوابعه الفكرية.

• فى الأديان:

١٣ ـ المدخل لدراسة الأديان.
١٤ ـ أصول النصرانية فى الميزان.
١٥ ـ المسيح ورسالته فى القرآن.
١٦ ـ أوروبا والنصرانية.
١٧ ـ عبادة الشيطان فى البيان القرآنى والتاريخ الإنسانى.

• فى الفرق الإسلامية:

١٨ ـ مقدمة فى دراسة الفرق الإسلامية.
١٩ ـ قضية التكفير فى الفكر الإسلامى.

• فى السيرة النبوية والحديث الشريف:

٢٠ ـ الرسول فى رمضان.

٢١ ـ الرسول حول الكعبة.

٢٢ ـ الرسول وقضايا المجتمع.

٢٣ ـ الرسول والموافقات.

٢٤ ـ وعندئذ قال الرسول.

٢٥ ـ شرح الحكمة النبوية.

• فى الشريعة الإسلامية:

٢٦ ـ محاورة تطبيق الشريعة.

٢٧ ـ نحو دستور إسلامى.

٢٨ ـ أخلاق الأسرة المسلمة.

٢٩ ـ العبادات فى الإسلام.

• فى التحقيق:

أ ـ مؤلفات فضيلة الدكتور/ سيد أحمد رمضان المسير ـ رحمه الله تعالى ـ:

٣٠ ـ السنة مع القرآن.

٣١ ـ السنة المطهرة.

٣٢ ـ إلزام القرآن للماديين والمليين.

٣٣ ـ دراسات قرآنية.

ب ـ مؤلفات فضيلة الشيخ محمد على سلامة ـ رحمه الله تعالى ـ:

٣٤ ـ منهج الفرقان فى علوم القرآن.

• كتب نفدت وأعيدت طباعتها تحت عناوين أخرى:

٣٥ ـ فى نور العقيدة الإسلامية.

٣٦ ـ أدب الحديث عن الله.

٣٧ ـ علم التوحيد للشهادة الإعدادية الأزهرية.

٣٨ ـ الحوار بين الجماعات الإسلامية.

٣٩ ـ الرسول والوحى.

فهرس الموضوعات

المبحث الرابع: الدعوة إلى الله تعالى

